جامعة القديس يوسف
كلية الآداب والعلوم الانسانية
فرع الآداب العربية
بيروت

الباقلاني : حياته وآثاره

رسالة ماجستير اعدتها
الآنسة سميرة عقيل فرحات

واشرف عليها
المرحوم الآب الدكتور بولس نويا
الدكتورة وداد القاضي

سنة ١٩٨٠

الباقلانـــــــــي
حياتـــــه وآثـــــــــاره

٦

الباقلاني : حياته وآثـــــــــاره

البـــــاب الاول
حيـــاة الباقلانـــــــــــــــــي

=

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ، ورجلا سلما لرجل
هل يستويان مثلا﴾

سورة الزمر : ٢٩ .

﴿امن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما ، يحذر الاخرة ويرجو
رحمة ربه . قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، انما
يتذكر اولو الالباب﴾

سورة الزمر : ٩ .

الفصـــــــل الاول

أ) تمهيـــد .

ب) حياة الباقلانـــي .

تمهيـــــــد :

بالرغم من ان الباقلاني شخصية كبيرة من شخصيات الفكر الاسلامي في القرن الرابع الهجرى ، وبالرغم من تعرض هذه الشخصية لاهم القضايا التي شغلت الفلاسفة آنذاك : كالموجود ، كالوجود ، والعدم ، وشغلت علماء الكلام والاصول : كوجود الخالق وصفاته ، وخلق العالمين العلوى والسفلي بما فيهما من المخلوقات ، فان احدا من الدارسين المحدثين (١) ، لم يتوفر على دراسة الباقلاني دراسة مستقلة ، مستفيضة مستقصية ، وان تعرض لذكر بعض نواحي نشاطاته الفكرية بشكل جزئي دون استيفاء ، فكل هذا لا يغني عن دراسة متكاملة ، وان اولية للباقلانـــي .

ومن المشكلات الاساسية التي يواجهها الدارس لدى دراسة الباقلاني ان المصادر التي تحدثت عنه او ترجمت له ، لم تتفق على بعض الامور الرئيسية التي يجب معرفتها عنه ، فهذه المصادر قد اهملت ـ مثلا ـ ذكر سنة ولادة الباقلاني ، واختلفت في نسبته ووفاته ، وفي حياته عامة ، وفي مناصبه التي تسلمها ، وفيما اذا كان قاضيا او قاضي قضاة . كما اختلفت في مذهبه الفقهي هل هو على المذهب المالكي او الشافعي او الحنبلـــي (٢) .

---

١) من هؤلاء الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريدة والدكتور محمود محمد الخضيري في تحقيقهما في كتاب التمهيد طبعة القاهرة ١٩٤٧ ، والدكتور محمد زغلول سلام في تحقيقه . في كتاب نكت الانتصار لنقل القرآن طبعة الاسكندرية ١٩٧١ ، والسيد احمد صقر في تحقيقه في كتاب اعجاز القرآن طبعة ١٩٦٣ ، والسيد محمد زاهد الكوثري في تحقيقه في كتاب الانصاف في اسباب الخلاف طبعة القاهرة ١٩٦٣ ، وهذه الكتب المحققة جميعها هي للباقــــلانـي .

ومن الدارسين الذين تعرضوا للباقلاني في كتبهم الموضوعة حول علم الكلام ومسائله المختلفة . الاب الدكتور ميشال الآر في كتابه مشكلة الصفات الالهية في مذهب الاشعرى (مخطوط مترجم الى العربية انظر بمكتبة جامعة القديس يوسف والدكتور عبد الرحمن بـــدوى في كتابه مذاهب الاسلاميين طبعة بيروت ١٩٧١) .

٢) في مقابلة شخصية وبعد مناقشة رسالة ماجستير في جامعة القديس يوسف لـــدورة حزيران سنة ١٩٧٢ بعنوان ابن حزم الاندلسي : حياته وفلسفته ، اثار انتباهي مشكـــورا ==

.../..

ومن هنا حاولت في الفصلين الاول والثاني ، في الباب الاول من هذا العمل المتواضع ان اصل في شأن هذه القضايا الى نتائج نهائية حيث كان ذلك ممكنا ، فرجعت الى معظم المصادر التي نسبت ابا بكر محمد بن الطيب الى " الباقلاني " او " ابن الباقلاني " او " الباقلاوى " ووجدت الاختلاف ليس في معنى اللقب بقدر ما هو يحدث التباسا للبعض في تحديد شخصيته ، لذلك اخترت اللقب الذى اختاره " ابو حيان التوحيدى " و" ابن الاثير " وغيرهما . ثم اثبت مالكية الباقلاني وابعدت نهائيا فكرة احتمال كونه شافعيا او حنبليا ، هذا وقد وصلت الى نتائج ترجيحية حيث كان القطع اليقيني امرا متعذرا . فبقيت فكرة ما اذا كان الباقلاني قاضيا او قاضي قضاة متأرجحة الى ان يأتينا من يثبت احدى الفكرتين . واعتمدت في ذلك على ما دونه المؤرخون عن الباقلاني وما كتبوا عن سيرته الذاتية ونشاطه الفكرى والعلمي الشيء الكثير . وقد اعجبوا بهذه الشخصية الاسلامية الفذة فتناقلوا اخبارها واحدا عن الاخر في بعض الاحيان (١) . وفي احيان اخرى حاول البعض (٢) ، استقصاء المعلومات لاظهار شأن هذه الشخصية ورفع مكانتها العلمية .

وفي الباب الثاني اعتمدت على مصنفات الباقلاني التي وصلتنا واهمها كتاب " البيان " وقد اثار فيه مسألة القدرة الالهية والمعجز الناتج عنها . وكتاب " اعجاز القرآن " عالج فيه مسالة المعجز الالهي النازل على محمد فأثبت نبوته بظهور القرآن وميز اسلوبه

== الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريدة وهو احد محققي كتاب التمهيد للباقلاني (طبعة القاهرة ١٩٤٧) الى اهمية تبيان مذهب الباقلاني لاختلاطه على الكثيرين فبالرغم من ظهور شخصية الباقلاني على بساط علم الكلام والفلسفة ، فقد ظل مذهبه في غموض وتأرجح بين الشافعية والمالكية الى هذا الحين ، لان احدا لم يأت ببرهان قاطع يفي بالغرض ويحدد ان الباقلاني كان مالكيا ، وليس شافعيا استنادا الى المصادر التي كتبت عنه والى آثاره التي تركها في اصول الفقه والدين .

١) القاضي عياض في كتابه " ترتيب المدارك " نقل عن الخطيب البغدادى صاحب تاريخ بغداد وابن فرحون نقل عن القاضي عياض .

٢) الخطيب البغدادى وابن الجوزى استقل كل واحد منهما برأيه فجاءت كتابتهما عن الباقلاني متفقة في المعنى مختلفة في المصدر .

٠٠/٠٠٠

وكتاب التمهيد اثار فيه اختصارا لمختلف المسائل التي اهتم بها معاصروه من فرق غير اسلامية وفرق اسلامية ، مبطلا حجج اللاموحدين من الطبائعيين والمنجمين ، واهل التثنية ومثبتا فكرة الاله الواحد ، ثم داعيا الموحدين من النصارى واليهود الى تنزيه الاله واثبات صفاته الذاتية والفعلية مميزا فكرته هذه عن المخالفين له ، وللاشعرية اصحابه من المتأولين من معتزلة ، وخوارج ورافضة ، مناصرا فرقة اهل السنة والجماعة ومعتبرا ان الاشعرية التي ينتمي اليها من هذه الجماعة .

ولما كانت هذه الكتب جميعها اكثر ابرازا [1] . لشخصية الباقلاني الفكرية الخصبة المتنوعة . فقد انهيت هذا العمل بخاتمة توجز نتائج البحث عامة بالنسبة لموضوع الباقلاني : حياته وآثاره .

---

١) الكتب التي لم اتناولها بالبحث : كتاب الانصاف في اسباب الخلاف وكتاب نكت الانتصار لنقل القرآن وسوءالات الرى . ان هذه الكتب لم تكن غنية بقدر اكبر في افكارها من الكتب التي تناولتها بالبحث سواء بالنسبة لعلم الكلام او الفلسفة او لابراز شخصية الباقلاني ككل .

../..

١) اسم الباقلاني ونسبتـــــه :

اجمعت المصادر التي ترجمت للباقلاني على انه : محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم ، المكنى بابي بكر (١) .

وقد اختلفت المصادر في نسبته ، فابو حيان التوحيدى (٢) ، وابن الاثير (٣) ، وابن خلكان (٤) ، وابو الحسن النباهي (٥) ، ويجعلون نسبته "الباقلاني" قال ابن الاثير : الباقلاني "بفتح الباء الموحدة وكسر القاف بعد الالف واللام وفي اخرها النون" (٦) وهي نسبة : "الى الباقلا وبيعه" (٧) .

واما الخطيب البغدادى (٨) ، والقاضي عياض (٩) ، وتاج الدين السبكي (١٠) ، وابن العماد الحنبلي (١١) ، فيجعلون نسبته "ابن الباقلاني" . واما ابن الجوزى (١٢) فيجعل نسبته "الباقلاوى" بالواو من دون النون .

وقد يكون لجريان النسب على الاب وانتقاله الى الابن شأن ، احد هذا الاختلاف ، او قد يكون لتناقل الاسماء والانساب على مر الاجيال شأن اخر ، حصل منه هذا الاستبدال ، فنعت بنسب الاب مرة واطلق عليه النسب مرة اخرى ، وهذا امر كثير الحدوث لدى العرب .

---

١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٥ : ٣٧٩ ، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة مذهب الامام مالك للقاضي عياض اليحصبي السبتي ٤ : ٥٨٥ تبيين كذب المفترى لابن عساكر : ٢١٧ ، ، المنتظم في التاريخ لابن الجوزى ٧ : ٢٦٥ تهذيب اللباب وتقريب الانساب لابن الاثير ١ : ١١٢ ، وفيات الاعيان لابن خلكان ٤ : ٢٦٩ ، طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي ٣ : ٣٦٩ ، البداية والنهاية لابن كثير ١١ : ٣٥٠ ، تاريخ قضاة الاندلس لابي الحسن النباهي : ٣٧ ، الديباج المذهب لابن فرحون : ٢٦٧ .
٢) الامتاع والمؤانسة لابي حيان التوحيدى ١ : ١٤٣ .
٣) تهذيب اللباب وتقريب الانساب ١ : ١١٢ .
٤) وفيات الاعيان : ٤ : ٢٦٩ .
٥) تاريخ قضاة الاندلس : ٣٧ .
٦) تهذيب اللباب ١ : ١١٢ .
٧) تهذيب اللباب ١ : ١١٢ .
٨) تاريخ بغداد ٥ : ٣٧٩ .
٩) ترتيب المدارك ٤ : ٥٨٥ .
١٠) طبقات الشافعية الكبرى ٤ : ٢٥٧ .
١١) شذرات الذهب ٣ : ١٦٩ .
١٢) المنتظم ٧ : ٢٦٥ .

.../..

وقد لقب الباقلاني "بالقاضي" من طائفة من المؤرخين ، نذكر منهم : الخطيب البغدادي (١) وابن الجوزي (٢) ، وابن الاثير (٣) ، وتاج الدين السبكي (٤) .

والباقلاني مالكي المذهب كما بين ذلك القاضي عياض ، على لسان ابن عمار الميورقي : "كان ابن الطيب مالكيا" (٥) ، وهو ايضا متكلم على "مذهب اهل السنة واهل الحديث" (٦) ، على حد تعبير ابن فرحون ، وقد برزت نزعته الى الاشعرية في علم الكلام في مختلف المصادر التي وصلتنا ومنها تاريخ بغداد ، وفي تاريخ الكامل وصفه ابن الاثير "بالقاضي ابي بكر محمد بن الطيب الاشعري" (٧) ، واتى هذا الوصف عينه على لسان ابن فرحون في الديباج المذهب (٨) ، كما لقبه السبكي "سيف السنة" (٩) .

غير ان اكثر من اسرف في اعطاء الباقلاني القاب المديح هو القاضي عياض ثم ابن فرحون ، والثاني منهما ينقل عن الاول في الغالب ، قالا : "الملقب بشيخ السنة ولسان الامة ، المتكلم على مذهب اهل السنة ، واهل الحديث وطريقة ابي الحسن الاشعري" (١٠) .

واذا كانت هذه الالقاب ايجابية المنزع ، فان الباقلاني — لم يعدم من يصفه بالالقاب السلبية ، اذ نعلم ان ابا حيان التوحيدي في كتابه "الامتاع والمؤانسة" كان يتهمه بالالحاد فهو "على مذهب الخرمية وطرائق الملحدة" (١١) . وقد يكون ذلك راجعا الى عداوة التوحيدي الشديدة للكلام والمتكلمين ، وذلك موقف عبر عنه ابو حيان في معظم كتبه" (١٢) .

---

١) تاريخ بغداد ٥: ٣٧٩ .
٢) المنتظم ٧: ٢٦٥ .
٣) تهذيب اللباب ١: ١١٢ .
٤) طبقات الشافعية ٣: ٣٦٩ .
٥) ترتيب المدارك ٤: ٥٨٦ .
٦) الديباج المذهب : ٢٦٧ .
٧) الكامل في التاريخ ٩: ١٦ .
٨) الديباج المذهب : ٢٦٧ .
٩) طبقات الشافعية الكبرى ٣: ٣٦٩ .
١٠) ترتيب المدارك ٤: ٥٨٥ ، الديباج المذهب : ٢٦٧ .
١١) الامتاع والمؤانسة ١: ١٤٣ .
١٢) انظر دراسة الدكتور (احسان عباس بعنوان "ابو حيان التوحيدي وعلم الكلام" ، في مجلة الابحاث (الجامعة الاميركية في بيروت) العدد ١٩ (١٩٦٦) : ٣٩٥ ــ ٤٠٦) .

.../..

ثم اذا تجاوزنا في تعداد الالقاب على سبيل المجاز لا الحقيقة، فان بعض الناس لقب الباقلاني "بالشيطان" وقد ذكر هذا اللقب القاضي عياض على لسان ، ملك الروم ، وعلى لسان ابن المعلم ، وجماعة من اهل مجلس عضد الدولة فناخرو" الذي لقب نفسه بالملك "[1]. وهم من شيوخ المعتزلة فقد كان داخلا ، اذ سمعهم يذكرون امره ، فقال لهم بعضهم : ما هو الا شيطان فوصل اليهم وهو يتلو الآية (انا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم ازا)[2]، [3].

---

١) الكامل في التاريخ ٩: ١٦ .
٢) سورة مريم : ٨٣ .
٣) ترتيب المدارك ٤: ٥٨٩ .

٠٠/٠٠٠

٢) ولادة الباقلاني ونشأته :

اهمل المؤرخون القدامى تحديد تاريخ ولادة الباقلاني [١] ، وما ادى الى اختلاف الباحثين المعاصرين في وضع سنة تقريبية لولادته [٢] ، فلم يحددها الدكتور عبد الرحمن بدوى ، وكذلك الدكتور محمد زغلول سلام والسيد احمد صقر ، بينما حاول الاب الدكتور ميشال الآرد ان يحدد عام ولادة الباقلاني بسنة ٣٣٠ هجرية [٣] .

ومهما يكن من امر الاختلاف في سنة ولادته فان المؤرخين يجمعون على انه ولد في البصرة وبها نشأ [٤] ، ويبدو انه تلقى قسطا لا بأس به من ثقافته هناك ، فانه عندما دخل بغداد وهو بعد في مطلع شبابه اقام حلقة نظر مع ابن مجاهد " وتعلق الكلام بينهما الى ان انفجر عمود الصبح " [٥] .

وقد سكن الباقلاني بدرب المجوس من بغداد [٦] ، في الكرخ في الجانب الشرقي من المدينة [٧] . وعلى ما يبدو فقد جعل من بغداد مقرا له بعد لجوئه اليها قادما من البصرة في مطلع شبابه ، وقد تركها مرتين : الاولى الى شيراز فطالت اقامته في هذه المدينة ، بسبب صحبته لعضد الدولة والثانية الى القسطنطينية . ولم تدم اقامته بها طويلا . فعاد الى بغداد ليستقر بها حتى وفاته .

---

١) تاريخ بغداد ٥: ٣٧٩ ، ترتيب المدارك ٤: ٥٨٥ ، تبيين كذب المفترى : ٢١٧ ، المنتظم ٧: ٢٦٥ ، تهذيب اللباب ١: ١١٢ ، وفيات الاعيان ٤: ٢٦٩ ، طبقات الشافعية الكبرى ٣: ٣٦٩ البداية والنهاية ١١: ٣٥٠ ، تاريخ قضاة الاندلس : ٣٧ ، الديباج المذهب : ٢٦٧ .

٢) عبد الرحمن بدوى في مذاهب الاسلاميين ١: ٥٦٩ ، محمد زغلول سلام في مقدمة نكت الانتصار للباقلاني صفحة : ١ ـ احمد صقر في مقدمة اعجاز القرآن للباقلاني : ١٧ ، ـ الاب ميشال الآرد في مشكلة الصفات الالهية .

٣) اجتهد الاب الدكتور ميشال آلارد في وضع سنة تقريبية لولادة الباقلاني ففي كتابه المخطوط مشكلة الصفات الالهية يقول الاب الآرد ان الخطيب البغدادى ولد عام ٣٩٢ ، ولم يعاصر من عرف الباقلاني عن قرب . وحين وجه عضد الدولة دعوته الى الباقلاني والى شيخه ابي عبد الله بن مجاهد كان ما زال في شيراز ، ثم كان سفر الباقلاني الى القسطنطينية عام ٣٧٢ وهو لم يزل في سن الاربعين ، فعليه حدد الاب الآرد تاريخ ولادة الباقلاني (انظر الورقة ٢٩٠ من المخطوط ، انظر في مكتبة كلية الاداب الشرقية جامعة القديس يوسف) .

٤) تاريخ بغداد ٥: ٣٧٩ ، تهذيب اللباب ١: ١١٢ ، الديباج المذهب : ٢٦٧ .

٥) تبيين كذب المفترى : ٢٢١ .

٦) وفيات الاعيان ٤: ٢٦٩ .

٧) كان هذا الجانب في القرن الرابع الهجرى آهلا تحتشد فيه الحمامات التي يفوق عددها ==

.../..

وكان الباقلاني تقيا ورعا ، وكان ورده في كل ليلة عشرين ترويحة قال القاضي عياض وغيره : "ما ترك ذلك في حضر ولا سفر "(١) وكان عالما "فاذا صلى العشاء قضى ورده ، وضع الدواة بين يديه ، وكتب خمسا وثلاثين ورقة تصنيفا من حفظه ، وكان يذكر ان الكتابة بالمداد اسهل عليه من الكتابة بالحبر ، فاذا صلى الفجر دفع الى بعض اصحابه ما صنفه في ليلته ، وامره بقراءته عليه واملى عليه الزيادات فيه "(٢) . وروى ابن عساكر عن ابي الفرج - يعني ابن الجوزي - انه قال : "سمعت ابا بكر الخوارزمي (٣) يقول : كل مصنف ببغداد انما ينقل من كتب الناس الى تصنيفه سوى القاضي ابي بكر ، فان صدره يحوي علمه وعلم الناس "(٤) . وقال الحافظ ابن عساكر : "حكى من اثق به ان الصاحب بن عباد (٥) كان اذا انتهى الى ذكر الباقلاني وابن فورك (٦) والاسفرائيني (٧) ، وكانوا متعاصرين من اصحاب ابي الحسن الاشعري ... قال لاصحابه : ابن الباقلاني بحر مغرق ، وابن فورك صل مطرق ، والاسفرائيني نار تحرق "(٨) .

وان كان الباقلاني رويا لحياة ابن خفيف (٩) ، شيخ المشايخة الزاهد المتقشف ، كما اعتبره تاج الدين السبكي في طبقاته (١٠) ، فانه كان مجادلا حذقا ، جادل وزير عضد الدولة حين بشره بالطالع في خروجه الى القسطنطينية قائلا باعتقاده في ان الخير والشر من الله تعالى (١١) . وجادل ابا اسحاق النصيبيني في مسألة الرؤية (١٢) ، واثار في حضرة الاحدب رئيس معتزلة بغداد مسائل كلامية كثيرة (١٣) ، كما اثار مع اساقفة الروم في بلاط امبراطورهم في القسطنطينية مسالة التوحيد والصفات الالهيــــة (١٤) .

=على العشرة الاف حمام ويتفرع منه باب يقف فيه الحمارون بحميرهم لانه مدخل القسم التجاري للمدينة (انظر كتاب الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم ميتز ترجمه محمد عبد الهادي ابو ريده ٢ : ٢٢٤ ، ٢٧٨) .

١) ترتيب المدارك ٤ : ٥٨٨ ، تبيين كذب المفتري : ٢٢٠ .
٢) ترتيب المدارك ٤ : ٥٨٨ ، تبيين كذب المفتري : ٢٢٠ ، شذرات الذهب ٣ : ١٦٩ .
٣) هو محمد بن موسى بن محمد المتوفى ٤٠٨ (انظر تاريخ بغداد ٣ : ٢٤٧) .
٤) تبيين كذب المفتري : ٢٢٠ .
٥) هو اسماعيل بن عباد الطالقاني المكنى بابي القاسم والمتوفي ٣٨٥ (انظر تاريخ بغداد ٣ : ٢٤٧) .
٦) هو ابو بكر محمد بن الحسن المتوفي ٤٠٦ (انظر وفيات الاعيان ٤ : ٢٧٢) .
٧) هو ابراهيم بن محمد بن ابراهيم ابو اسحاق المتوفى ٤١٨ (انظر اللباب ١ : ٥٥) .
٨) طبقات الشافعية الكبرى ٤ : ٢٥٧ .
٩) هو ابو عبد الله محمد بن خفيف بن خفيشاف الضبي والمتوفى ٣٧١ (انظر طبقات الصوفية لعبد الرحمن السلمي الصوفي : ٤٨٥) .
١٠) طبقات الشافعية ٣ : ١٤٩ .
١١) ترتيب المدارك ٤ : ٥٩٤ .
١٢) ترتيب المدارك ٤ : ٥٩٢ .
١٣) ترتيب المدارك ٤ : ٥٩١ .
١٤) ترتيب المدارك ٤ : ٥٩٦ - ٦٠٠ .

../...

فالباقلاني مناظر لا يقطع ، وان اراد له ابن المرتضى في طبقات المعتزلة غير هذا ، فقد اظهر عليه ابا القاسم البستي [١] ، في مناظرة جرت بينهما وانما فعل ذلك ليرفع شأن ابي القاسم ويعلي من قدره مبينا مكانة القاضي عبد الجبار ، الملقب بقاضي القضاة ــ ومكانة المعتزلة عامة [٢] ، من دون الاشاعـــــرة .

والباقلاني رسول مسالم مسلم سواء كان في حياته السياسية او في حياته الاجتماعية . يخبر ابن الجوزي انه في سنة ٤٠١ اي قبل وفاة الباقلاني بسنتين عمل ــ الباقلاني ــ وسيطا لرفع الجور ونار الفتنة التي امتدت ما بين الموصل والرقة ، والتي غذاها الخليفة الفاطمي الحاكم بامر الله [٣] وقام بها قرواش [٤] على الخليفة العباسي القادر بالله . فاجابته الرعية المملوكة على مضض . الا ان قرواش كشف القناع عن وجهه ، واظهر المباينة للحاكم ، ولربما حاول ان يستقل بنفسه وهذا ما ازعج الخليفة القادر بالله ، فانقذ الباقلاني رسولا بين الاطراف المتنازعة ، فكاتب ــ الباقلاني ــ الحاكم بامر الله ، واتصل بقرواش ، وقد اشار الباقلاني نفسه الى هذا عندما قال : " والله ان عندنا من هذا الامر اكثر مما عند امير المؤمنين . لان الفساد علينا به اكثر ، وقد كاتبنا ابا علي وتقدمنا باطلاق مائة الف دينار يستعين بها على نفقات العسكر وان دعت الحاجة الى مسيرنا كنا اول طالع على امير المؤمنين [٥] ".

وقد انشأ ابو الحسن علي بن عيسى السكري قصيدة في مدح الباقلاني تناقلها ابو بكر الخطيب البغدادي [٦] ، وابو تراب الانصاري [٧] ، والشريف ابو القاسم [٨] ، وغيرهم ابرز فيها مناقب الباقلاني في الفقه والفتوى والقضاء والحجاج والكلام فمن ابيات هذه القصيدة التي بدأها بالتغزل في محبوبته ثم عتابهـــــا :

---

١) ابو القاسم البستي هو اسماعيل بن احمد اخذ على القاضي وله كتب جيدة وهو يميل الى مذهب الزيدية (انظر طبقات المعتزلة : ١١٧) .
٢) طبقات المعتزلة : ١١٧ .
٣) هو ابو علي الحاكم بأمر الله صاحب مصر (انظر المنتظم ٧: ٢٤٨) .
٤) هو ابو المنيع قرواش بن المقلد (انظر المنتظم ٧: ٢٤٨) .
٥) المنتظم ٧: ٢٤٨ .
٦) (٣٩٢ ــ ٤٦٣) .
٧) هو حيدرة بن احمد بن الحسين الانصاري المقرى (انظر تبيين كذب المفتري : ٢١٧) .
٨) هو علي بن الحسين الموسوي الشريف المرتضى (انظر طبقات المعتزلة : ٦٩) .

../...

"فكأنها من حيث ما قابلتها … شيم الامام محمد بن الطيب
اليعربي فصاحة وبلاغة … والا شعرى اذا اعتزى للمذهب
قاض اذا التبس القضاء على الحجى … كشفت له الآراء كل مغيب
لا يستريح اذا الشكوك تخالجت … الا الى لب كريم المنصب

. . . .

ما زال ينصر دين احمد صادعا … بالحق يهدى للطريق الاصوب
حتى انجلت تلك الضلالة واهتدى الـ … ـسارى واشرق جنح ذاك الغيهب

. . . .

واذا الكلام تطاردت فرسانه … وتحامت الاقران كل مجرب
الفقيه من لبه وجنانه … ولسانه وبيانه في مقنب
ذو مجلس فلك تضيء بروجه … وعلى كل ازهر كالصباح الاشهب(١) .

---

١) تاريخ بغداد ٥: ٣٨٠ ـ ٣٨١ ، تبيين كذب المفترى : ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

../...

٣) شيوخ الباقلاني :

تلقى الباقلاني العلم على عدد من كبار علماء عصره في حقول الحديث ، والفقه ، وعلم الكلام . فمن الذين درس عليهم الحديث : ابو بكر بن مالك القطيعي . وابو محمد بن ماسي وابو احمد الحسين بن علي النيسابوري . وفي الفقه والاصول درس الباقلاني على ابي بكر الابهري وعلى ابي عبد الله بن مجاهد الطائي . واما في الكلام فتتلمذ على ابي عبد الله بن مجاهد الطائي أيضا ، وابي الحسن الباهلي ، وكان استاذه الروحي ابو الحسن الاشعري . وسوف ادرس باختصار شديد سيرة كل شيخ من هؤلاء من حيث صلتهم بالباقلاني وأثرهم في تثقيفه وتكوين شخصيته الفكرية .

ابو بكر بن مالك القطيعي (1) :

ورد اسم ابي بكر بن مالك شيخا للباقلاني في معظم المصادر (2) ، التي ترجمت لحياة ابن الطيب ، فقد سمع عليه الحديث وكان القطيعي "يروى عن اسحاق وابراهيم الحرميين ، وعبد الله بن احمد بن حنبل وكان مكثرا " (3) .

وقد شك البعض بحديثه حين غرقت قطيعة له ، كان قد نقلها الا انه عاد واجمع على صحة هذا الحديث ، يقول البرقاني : "كنت شديد التنقير عن حال ابن مالك . حتى ثبت عندي انه صدوق لا يشك في سماعه ، وانما كان فيه بله ، فلما غرقت القطيعة بالماء الاسود ، غرق شيء من كتبه فنسخ ما غرق من كتاب لم يكن فيه سماعه ، ولما اجتمعت مع الحاكم بن عبد الله ابن البيع نبيسابور ذكر ابن مالك ، ولينته ، فأنكر علي وقال : ذاك شيخي " (4) .

---

1) هو احمد بن جعفر بن حمدان بن مالك (٢٧٤ ـ ٣٦٨) (انظر تاريخ بغداد ٤ : ٧٣ ، لسان الميزان لابن حجر ١ : ١٤٥) .
2) تاريخ بغداد ٥ : ٣٧٩ ، المنتظم ٧ : ٢٦٥ ، البداية والنهاية ١١ : ٣٥٠ .
3) تهذيب اللباب ٣ : ٤٨ .
4) تاريخ بغداد ٤ : ٧٣ .

.../..

اما ابو محمد بن ماسي : فقد ذكره الخطيب ، وابن الجوزي في تاريخهما شيخا للباقلاني في الحديث [١] ، واعتبره ابن كثير شيخا متكلما مشهورا في الرد على اهل الاهواء "كان يرد على اهل الاهواء بالعلم " [٢] هكذا عرفه الدارقطني [٣] ، حين التقى به يوما . فشيخ الباقلاني ابو محمد بن ماسي قد يكون محدثا ومتكلما معا .

واما ابو احمد الحسين بن علي النيسابوري : فقد اخذ عنه الباقلاني الحديث وكان ثقة . [٤]

وقد حدث القاضي الباقلاني [٥] عن ابي بكر الابهري : [٦] وكان فقيها مالكيا عالما ، صنف وشرح مذهب مالك حتى انتهت اليه الرئاسة فيه ، وكان ابو بكر الابهري شديد الرفق والمواساة بطلاب العلم ، يجود عليهم ويكسوهم ، فلما قارب الوفاة "وثيقن حاله ، اخرج لاصحابه برنية فيها ثلاثة آلاف مثقال ... فأعطى منه اصحابه على مراتبهم ، واعطى الاكابر منهم مائة مثقال واعطى الباقلاني مائة وخمسين " [٧] .

ويروى السبكي في الطبقات ان اباعبد الله بن مجاهد الطائي [٨] ، صاحب ابا الحسن الاشعري ، ويروي ايضا القاضي عياض وابن العماد ان ابن مجاهد هذا كان "شيخ القاضي (ابي بكر) الباقلاني " [٩] في علم النظر وكذلك في اصول الفقه ، فقد كان "مالكي المذهب اماما فيه مقدما " وان "غلب عليه علم الكلام والاصول " [١٠] .

---

١) تاريخ بغداد ٥ : ٣٧٩ _ المنتظم ٧/ ٢٦٥ .
٢) البداية والنهاية ١١ : ٣٥٠ .
٣) هو علي بن عمر بن احمد بن مهدي الحافظ الكبير المتوفى سنة ٣٨٥ (انظر البداية والنهاية ١١/ ٣١٧) .
٤) تاريخ بغداد ٥/ ٣٧٩ ، المنتظم ٧/ ٢٦٥ .
٥) ترتيب المدارك ٤ : ٤٦٦ .
٦) هو محمد بن عبد الله بن صالح (٢٨٩ _ ٣٧٥) ، (انظر تهذيب اللباب ١/ ٢٧) (وانظر ترتيب المدارك ٤ : ٤٦٨)
٧) ترتيب المدارك ٤: ٤٦٨ .
٨) هو محمد بن احمد بن يعقوب المكني بأبي عبد الله والمتوفى بعد سنة ٣٦٠ ، (انظر العبر للذهبي ٢/ ٣٥٨) ورد في ترجمة الباقلاني للقاضي عياض كنيته بأبي بكر وليس عبد الله وهذا خطأ (انظر ترتيب المدارك ٤/ ٥٨٦) سمع ابو عبد الله صحيح البخاري على ابي زيد المروزي وله كتب في الاصول" (انظر الديباج المذهب : ٢٥٨) .
٩) طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ٣٦٨ .
١٠) ترتيب المدارك ٣/ ٤٨٦ ، شذرات الذهب ٣/ ١٦٩ .   ../...

ويعتبر السبكي ان ابا الحسن الباهلي (١) : كان "شيخ القاضي ابي بكر (٢)، وكان "فقيها مذكورا ببلده" ومن الاشاعرة الاوائل، وان "لم يثبت انه جالس الشيخ (٣)، ابي الحسن الاشعري، ولكن عاصره و"تمذهب بمذهبه وقرأ كتبه" (٤) . ويقول ابو اسحاق الاسفرائيني زميل الباقلاني اليه "سمعت الباهلي يقول : كنت في جنب الاشعري كقطرة في جنب البحر" (٥) .

وكان الباقلاني يرد عليه في يوم جمعة يقول : "كنت انا وابو اسحاق الاسفرائيني (٦) وابن فورك (٧)، معا في درس الشيخ الباهلي، وكان يدرس لنا في كل جمعة مرة واحدة، وكان منا في حجاب يرخي الستر بيننا وبينه كي لا نراه . وكان من شدة اشتغاله بالله مثل واله او مجنون، لم يكن يعرف مبلغ درسنا حتى نذكره ذلك (٨) .

اما ابو الحسن الاشعري (٩)، شيخ الباقلاني الروحي فلعله اشهر من ان يعرف، فهو من متكلمي اهل السنة ناهض المعتزلة واسس مذهبا وسطا بين اهل العقل واهل النقل، فكان بحسب ما جاء في دائرة المعارف الاسلامية "نصيرا لرأى اهل السنة" (١٠) . وكان الباقلاني يشعر بمتعة ما بعدها متعة حين "يفهم كلام ابي الحسن" كما روى السبكي عنه (١١) . فأفضل احوانه ان يقرأ في كتبه . وابو الحسن الاشعري الذي صار "شجى في حلوق القدرية"، كما يقول عبد القاهر البغدادي، قد ترك وراءه تلامذة مشهورين منهم "ابو الحسن الباهلي، وابو عبدالله بن مجاهد، وهما اللذان

---

١) هو علي بن عبيد الله الباهلي المتوفى سنة ٣٦٥ (انظر ترتيب المدارك ٤/ ٥٧٢) .
٢) طبقات الشافعية ٣ : ٣٥١ .
٣) ترتيب المدارك ٤/ ٥٧٢ .
٤) طبقات الشافعية ٣/ ٣٦٨ .
٥) طبقات الشافعية ٣ : ٣٥١ .
٦) هو ابراهيم بن محمد بن ابراهيم المتوفى سنة ٤١٨ (انظر تهذيب اللباب ١ : ٥٥) .
٧) هو ابو بكر محمد بن الحسن بن فورك المتوفى ٤٠٦ (انظر وفيات الاعيان ٤: ٢٧٢) .
٨) طبقات الشافعية ٣ : ٣٦٨ .
٩) هو علي بن اسماعيل يعود نسبه الى ابي موسى الاشعري واختلف في تاريخ ولادته وايضا في تاريخ وفاته (٢٦٠ ـ ٣٣٠) او (٢٧٠ ـ ٣٣٥) (انظر وفيات الاعيان ٣ : ٢٨٤) .
١٠) دائرة المعارف الاسلامية مادة اشعري ١ : ٣٢٥ .
١١) طبقات الشافعية ٣/ ٣٥١ .

.../..

اثمر تلامذتهم الى اليوم شموس الزمان وائمة العصر ... كأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (١).
وقد كانت للباقلاني غير مناظرة مع بعض شيوخه كما سوف يظهر فيما يلـــــي :

١) الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي : ٣٦٤ .

../...

٤) نشاط الباقلاني في المناظرة والتدريس :

واذا كان الباقلاني قد درس على عدد غير قليل من كبار علماء عصره ، فانه بعد ان جلس للتعليم والتأليف خرج جماعة من الطلاب ما لبث بعضهم ان نال مكانة عالية في مختلف حقول العلم .

وقد كانت دعوة عضد الدولة (١) ، فرصة من الفرص التي سنحت امام الباقلاني لنشر علمه ، اذ انه حين كان مستقرا في شيراز ارسل في طلبه وشيخه ابن مجاهد ليشغلا "مكان اهل السنة والجماعة " الذى كان شاغرا في مجلسه ، هذا المجلس كان يحوى عددا غير قليل من كل فن : ادباء وشعراء ، وفقهاء ومتكلمين ، وكانت تعقد لهم الجلسات للمناظرة (٢) .

ورأى الباقلاني ان يغير من مسلك اهل السنة في التعامل مع اهل السلطان فلا يسير على ما سار عليه السابقون ، امثال ابن كلاب (٣) ، والمحاسبي (٤) ، وحجته ان يواجه خصمه ، وليس ان ينكفئ ويتراجع ، يقول ردا على شيخه الذى لم يستجب لدعوة عضد الدولة ، : "كذا قال ابن كلاب والمحاسبي ومن في عصرهم : ان المأمون فاسق لا نحضر مجلسه حتى ساق احمد بن حنبل وجرى عليه بعد ما عرف ، ولو ناظروه لكفوه عن هذا الامر وتبين لهم ما هم عليه بالحجة ، وانت ايضا ايها الشيخ تسلك سبيلهم

---

١) هو ابو الحسن بين بويه فناخسروا ابن ركن الدولة ، وهو اول من اطلق على نفسه لقب الملك في الاسلام ، تولى اقليم فارس سنة ٣٣٨ وهو ما زال في الرابعة عشرة من عمره ، ثم ما لبث ان استولى على ديار ربيعة وبكر ومعظم بلاد الجزيرة العربية ، وامتد ملكه الى العراق فدخل بغداد سنة ٣٦٧ ، واستقر فيها الى ان توفي "على اثر نوبة صرع خنقته في شوال من سنة ٣٧٢ ، كان عضد الدولة محبا للعلم ومحبا للعمران فقد اظهر قبر الامام علي بن ابي طالب في الكوفة واستحدث المارستان "وهو مكان للاستشفاء ورفع الجباية عن الحاج "واطلق الصلات" (انظر المنتظم ٧: ١١٣ والكامل لابن الاثير ٩: ١٨) .

٢) ترتيب المدارك ٤: ٥٩٠ .

٣) هو عبد الله بن محمد بن كلاب القطان وهو من بابية الحشوية (انظر الفهرست لابن النديم : ٢٥٥) .

٤) هو الحارث بن اسد ابو عبد الله المتوفى سنة ٢٤٣ (انظر اللباب ٣: ١٧١ ، وفيات الاعيان ٢: ٥٧) .

٠٠/٠٠٠

حتى يجري على الفقهاء ما جرى على احمد [1] ويقولوا بخلق القرآن ، ونفي الرؤية وها انا خارج ان لم تخرج "[2] .

وشأن عدد كبير من الروايات ، فقد حصل اختلاف في معرفة شخصية الشيخ الذي حاوره الباقلاني ، وشك القاضي عياض في اي الشيخين : ابي الحسن ام ابي عبد الله بن مجاهد الطائي واتته الدعوة الى عضد الدولة ، فكتب اسم الاول وحكى على لسان بعضهم ان يكون الثاني هو المقصود . ويدل الحوار الدائر بين الشيخ وتلميذه على ان شخصية الباقلاني قادرة متحفزة ، تتحرك اذا واتتها الفرصة المناسبة ، فالباقلاني يقبل دعوة عضد الدولة ، ويصمم على الخروج اليه ، والشيخ يرفضها ويجيب : " هؤلاء كفرة فسقة . لا يحل لنا ان نطأ بساطهم ، وليس غرض الملك من هذا الا ان يقال : ان مجلسه مشتمل على اصحاب المحابر كلهم ولو كان خالصا لله لنهضت " [3] .

هل يساير الجاهلي لهؤلاء الذين يعتبرهم فسقة فجرة ، وهو الذي يختفي وراء حجاب ، فلا يخرج خوفا من ان تراه العين التي تنقل رؤية السوقة ، ولا يظهر على احد من الناس ، حتى ولو كانت خادمته ، فكيف يخرج ؟ [4] . ثم نسمعه يجيب تلميذه : "اما اذا شرح الله صدرك لهذا فاخرج "[5] . وكأننا نفهم منه : لو كان صدري قد انشرح انا الاخر لهذا الأمر لخرجت .

ان هذه الصفات تنطبق على ابن مجاهد ، الذي كان يدعو الى تعلم اصول علم الكلام ، ويعتبر ان كل علم عيد لهذا العلم :

---

١) المقصود : احمد بن حنبل .
٢) ترتيب المدارك ٤ : ٥٩٠ .
٣) ترتيب المدارك ٤ : ٥٩٠ .
٤) طبقات الشافعية ٣ : ٣٦٨ .
٥) ترتيب المدارك ٤ : ٥٩٠ .

../...

"ايها المغتدى ليطلب علمـــا كل علم عبد لعلم الكـــلام
تطلب الفقه كي تصحح حكمـــا ثم اغفلت منزل الاحكـــام "[١] .

وابن مجاهد يناقش ويخاصم ، ويستضيف الاصدقاء وينزل ضيفا عليهم ، مـــن اجل عقد حلقات العلم ، ولا ينفك يتابع خصمه ويجادله حتى انبلاج الفجر [٢] . وقـــد جرت مناظرة بينه وبين الباقلاني حين ورد بغداد ، ذكرها ابن عساكر قال : "لما قـــدم القاضي ابو بكر الاشعري بغداد ، دعاه الشيخ ابو الحسن التميمي رحمهما الله ، امـــام عصره في مذهبه ، وشيخ مصره في رهطه ، وحضر الشيخ ابو عبد الله بن مجاهـــد ، والشيخ ابو الحسن محمد بن احمد بن سمعون ، وابو الحسن الفقيه ، فجرت مسألـــة الاجتهاد بين القاضي ابي بكر ، وبين ابي عبد الله بن مجاهد ، وتعلق الكلام بينهمـــا الى ان انفجر عمود الصبح ، وظهر كلام القاضي عليه رحمه الله "[٣] .

والباقلاني في كل حين كان قادرا على ان يواجه خصمه ، ويسخر لسانه ثـــم قلمه لغرضه الذي يندفع من اجله فيرد على ابن المعلم الذي لقبه "بالشيطان " بآيـــة من قول الله تعالى : (انا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم ازا) [٤] . والمعنـــى في ذلك "اذا كنت شيطانا فانت كافر " ولم يتورع الباقلاني من ان يسلط يده حين احتـــدم الجدل فقد " رماه ابن المعلم [٥] ، بكف باقلاء اعده له ليخجله ويحصره فرد القاضـــي للحين يده الى كمه ورماه بدرة اعدها له "[٦] .

ثم ان الباقلاني لا يزال يعقد حلقات العلم اينما استقر في بغداد فـــي جامع المنصور ، وفي شيراز في بلاط عضد الدولة . وكان المريدون يقصدونه من مختلف

---

١) الديباج المذهب : ٢٥٨ .
٢) تبيين كذب المفترى : ٢٢١ .
٣) تبيين كذب المفترى : ٢٢١ .
٤) سورة مريم ١٩ : ٨٣ .
٥) هو محمد بن محمد بن النعمان ، الشيخ المفيد عالم الرافضة ابو عبد بن المعلم المتوفى ٤١٣ وكانت علاقته بعضد الدولة وطيدة (انظر لسان الميزان ٥ : ٣٦٨) .
٦) الديباج المذهب : ٢٦٧ .

.../..

انحاء الخلافة الاسلامية ، ومن مختلف الفئات ، وسوف اذكر فيما يلي بعض من ذكرت المصادر
انهم درسوا عليه ، وأبين طبيعية صلته بهم باعتبارهم تلامذة له .

../...

٥) تلامذة الباقلانـــــي :

يذكر القاضي عياض ان الباقلاني لم يزل مع الملك عضد الدولة في شيراز حتى دفع اليـــــه "ابنه ليعلمه مذهب اهل السنة " (١) ، فألف كتاب التمهيد لهذه الغاية ، فأتى الكتــــاب مختصرا يرضي ميل الامير ، ورغبته في الانتساب دونما عناء (٢) . واخذ عن الباقلاني مــــع الامير ابن عضد الدولة جماعة من اهل السنة في شيراز منهم ابو عبد الرحمن السلمي الصوفي (٣) ، فقرأ عليه مع هؤلاء كتاب " شرح اللمع " (٤) . وكان ابو عبد الرحمن مكثرا من الحديث وله تصانيـف في علم الصوفيـــــة " (٥) .

ومن تلامذة الباقلاني ، ابو عمران الفاسي (٦) ، وهو فقيه اهل القيروان ، مالكي مـــــن "الطبقة الثالثة للاشعرية كما رتبها السبكي " (٧) ، كان ابو عمران قد تفقه بالمغرب والاندلـــس ، الا انه لما حضر مجلس القاضي عاد كالمتبدئ . يروي القاضي عياض على لسان ابي عمران يقول : "فلما حضرت مجلس القاضي ابي بكر ، ورأيت كلامه في الاصول والفقه ، مع المؤالف والمخالف حقـرت نفسي وقلت : لا اعلم من العلم شيئا ورجعت عنده كالمبتدئ " (٨) .

ومن تلامذة الباقلاني ايضا ، القاضي عبد الوهاب المالكي (٩) ، وقد كان فقيها مالكيـــا ، ليس بين المالكيـــن احد افقه منه (١٠) ، على حد تعبير ابـــن الجوزي ، ويعتبـــــره

---

١) ترتيب المدارك ٤ : ٥٩٣ .
٢) التمهيد للباقلاني طبعة بيروت ١٩٥٧ ، صفحة : ٤ .
٣) هو محمد بن الحسين بن محمد بن موسى المتوفى سنة ٤١٢ (انظر تهذيب اللباب ٢ : ١٢٩) .
٤) ترتيب المدارك ٤ : ٥٩٣ .
٥) تهذيب اللباب ٢ : ١٢٩ .
٦) هو ابو عمران موسى بن عيسى بن ـ بحج الفاسي (انظر تهذيب اللباب ٢ : ٤٠٧) .
٧) طبقات الشافعية ٣ : ٣٧٢ .
٨) ترتيب المدارك ٤ : ٥٨٧ .
٩) هو ابو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر بن احمد ، وهو من ذرية مالك بن طوق التغلبـي (٣٦٢ : ٤٢٢) (انظر وفيات الاعيان : ٣ : ٢١٩) .
١٠) المنتظم ٨ : ٦١ .

٠٠٠/٠٠

السبكي من الطبقة الثالثة للاشعرية (١) ، تولى القضاء بمدينة اسعرد ، وقيل كان قاضيا في باداريا وباكسايا ، وهما بلدتان من اعمال العراق "(٢) .

وكذلك ابو جعفر السمناني (٣) : من تلامذة القاضي ابي بكر ، اخذ عنه اصول الفقه والدين (٤) ، وكان ابو جعفر ثقة نبيلا في الحديث النبوي وعلى مذهب ابي حنيفة في الفقه (٥) ، غير انه في الكلام كان من الطبقة الثالثة للأشعرية ، على حسب تصنيف السبكي ، وكان قاضيا على الموصل (٦) .

ومن تلامذة الباقلاني البارزين ابو ذر الهروي (٧) ، وهو من فقهاء المالكية يتحرى في الفتيا ، زاهد متقشف فاضل ، قال القاضي عياض : "وكان ناشرا للعلم ، سكن الحرم وجاور فيه الى ان مات وسمع منه عالم لا يحصى من اهل الاقطار " (٨) ، و "منه اخذ المغاربة مذهب الاشعري ، وكان يقول انه اخذ مذهب مالك عن الباقلاني "(٩) و "كان سبب اخذي عن القاضي ابي بكر ، ومعرفتي بقدره ، اني كنت مرة ماشيا ببغداد مع ابي الحسن علي الدارقطني اذ لقيت شابا ، فاقبل الشيخ ابو الحسن عليه وعظمه ودعا له فقلت للشيخ : من هذا الذي تصنع به هذا ؟ فقال لي : هذا ابو بكر ابن الطيب ، نصر السنة ، وقمع المعتزلة ، واثنى عليه ، فاختلفت اليه ، واخذت عنه من يومئذ "(١٠) .

ويروي السبكي ان رافعا الحمال وهو ابن نصر البغدادي (١١) ، قرأ على من قرأ على القاضي ، واخذ عنه علم الاصول (١٢) ، وهو الفقيه الزاهد المعروف بالجمال

---

١) طبقات الشافعية ، ٣ : ٣٧٢ .
٢) وفيات الاعيان ٣ : ٢١٦ .
٣) هو محمد بن احمد بن محمد القاضي (٣٦١ – ٤٤١) (انظر المنتظم ٨ : ١٠٥٦) .
٤) ترتيب المدارك ٤ : ٥٨٦ .
٥) البداية والنهاية ١٢ : ١٠٦ .
٦) طبقات الشافعية ٣ : ٣٧٢ .
٧) هو عبد الله بن احمد بن محمد بن عبد الله (٣٥٦ – ٤٣٥) له كتاب السنة والصفات ، وكتاب الجامع وغيرها (انظر ترتيب المدارك ٤ : ٦٦٦) (البداية والنهاية ١٢ : ٥٠) .
٨) ترتيب المدارك ٤ : ٦٩٦ .
٩) البداية والنهاية ١٢ : ٥٠ .
١٠) ترتيب المدارك ٤ : ٥٨٦ .
١١) هو رافع بن نصر ابو الحسن البغدادي المتوفى سنة ٤٤٧ (انظر طبقات الشافعية ٤ : ٣٧٧) .
١٢) طبقات الشافعية ٤ : ٣٧٦ .

.../..

وقد اعتمد عليه السبكي في معرفة مذهب الباقلاني المالكي [١] .

ومن الذين اخذوا اصول الفقه والدين عن الباقلاني ابوعبد الله الاذرى [٢] . وقد ذكر ابن عساكر في كتاب التبيين "ان ابا الحسن بن داود لما كان يصلي في جامع دمشق تكلم فيه بعض الحشوية ، فكتب الى القاضي ابي بكر محمد بن الطيب بن الباقلاني الى بغداد يعرفه ذلك ، ويسأله ان يرسل الى دمشق من اصحابه ، من يوضح لهم الحق بالحجة فبعث القاضي تلميذه ابي عبد الله الحسين بن حاتم الاذرى ، فعقد مجلس التذكير في جامع دمشق في حلقة ابي الحسن بن داود ، وذكر التوحيد ونزه المعبود ، ونفى عنه التشبيه والتحديد ، فخرج اهل دمشق من مجلسه وهم يقولون احد احد " [٣] ، وقد انتقل ابوعبد الله الى المغرب ، فاستوطن القيروان ونشر العلم بتلك الناحية " [٤] .

على ان ابن الجوزى يروى عن ابي يعلى الحنبلي [٥] ، "انه اول من سمع من ابي بكر بن الطيب " وهو الذى ينتمي الى مذهب الامام احمد ابن حنبل ،وكان ابو يعلى قاضيا بدار الخلافة والحريم ، وكان له في الاصول والفروع القدم العالي "عرف القرآن وعلومه والحديث والفتاوى والجدل " [٦] ، ومن زهده وعفته ، فقد اشتغل في العلم ونشره .

اما ابو محمد بن اللبار التيمي [٧] ، فقد كان ثقة ويروى الذهبي عنه ، انه صاحب الباقلاني ، ودرس عليه علم الاصول [٨] .

---

١) طبقات الشافعية ٤: ٣٧٦ .
٢) هو ابوعبد الله الحسين بن حاتم (انظر تبيين كذب المفترى : ٢١٦) ورد الاذرى بالذال وليس بالدال في ترتيب المدارك ٤: ٥٨٦ .
٣) تبيين كذب المفترى : ٢١٦ .
٤) تبيين كذب المفترى : ٢١٦ .
٥) هو محمد بن الحسين ابن محمد بن احمد الفراء (٣٨٠ ـ ٤٥٨) (انظر المنتظم ٨: ٢٤٣) .
٦) طبقات الحنابلة : ١: ١٩٣ .
٧) هو عبد الله بن محمد الاصبهاني المتوفى سنة ٤٤٦ (انظر العبر للذهبي ٣: ٢١١) .
٨) العبر ٣ : ٢١١ .

٠٠/٠٠٠

٦) وفاة الباقلانــــي :

وردت روايتان في وفاة الباقلاني ، ليس فيهما اختلاف في تاريخ سنة الوفاة ، ولا في الشهر ، وان حصل خطأ في عد الايام المتبقية ، من شهر ذى القعدة الذى حصلت فيه الوفاة . فأبو بكر الخطيب البغدادى يجزم ان الباقلاني توفي (يوم السبت لتسع بقين من ذى القعدة سنة ثلاث واربعمائة)(١) ، وقد نقل هذا التاريخ القاضي عياض مستشهدا برواية ابي عمران الفاسي ، وهو تلميذ لازم الباقلاني بعد ان اتى بغداد قادما من المغرب ليتفقه عليه ، ويتعلم أصول الكلام ، كما اشير اليه من قبل فيذكر الفاسي انه استمع الى ابي بكر ، وهو ينص املاء "في شهر رمضان من سنة اثنتين واربعمائة "(٢) ، هذه رواية اولى ، واما في رواية ثانية فيؤكد ابن عساكر وفاة القاضي "يوم السبت الثالث والعشرين من ذى القعدة سنة ثلاث واربعمائة ... ودفن في داره بنهر طابق . ثم نقل الى باب حرب ، ودفن في تربة بقرب قبر الامام ابي عبد الله احمد بن حنبل رضى الله عنه " . ونقش على ناصب عند قبره "هذا قبر القاضي الامام السعيد ، فخر الامة ، ولسان الملة ، وسيف السنة عماد الدين ، وناصر الاسلام ابي محمد بن الطيب البصرى قدس الله روحه ، والحقه بنبيه محمد صلوات الله عليه وسلامه ، يزار ويستسقى ويتبرك به "(٣) .

وكذلك اثبتت مصادر اخرى سنة ٤٠٣ هجرية تاريخا لوفاة الباقلاني منها : كتب ابن الجوزى ، وابن الاثير ، وابن فرحون ، وابن خلكان(٤) ، فالباقلاني "توفي يوم سبت ، ودفن يوم احد "(٥) ، وصلى عليه ابنه الحسن(٦) ، الذى كان مرجوا ان يصبح كأبيه الا ان المنية وافته باكرا . قال ابن عساكر : "وحضر الشيخ ابو الفضل

---

١) تاريخ بغداد ٥ : ٣٨١ .
٢) ترتيب المدارك ٤ : ٥٨٨ .
٣) تبيين كذب المفترى ٢٢٣ .
٤) المنتظم ٧ : ٢٦٥ تهذيب اللباب ١ : ١١٢ ، وفيات الاعيان ٤ : ٢٦٩ . الديباج المذهب ٢٦٧ .
٥) وفيات الاعيان ٤ : ٢٦٩ .
٦) ترتيب المدارك ٤ : ٥٨٨ .

.../..

التميمي يوم وفاته حافيا مع اخوته واصحابه وامران ينادى بين جنازته ، هذا ناصر السنة والدين وهذا امام المسلمين هذا الذى كان يذب عن الشريعة والسنة المخالفين ، وقعد للعزاء ثلاثة ايام ، فلم يبق ، وكان يزور تربته كل يوم جمعة ..." (١) .

ونظم ابو بكر احمد بن علي مرثاة من بيتين انشدها ابو نصر عبد السيد بن محمد بن عبد الواحد يقول :

انظر الى جبل تمشي الرجال به — وانظر الى القبر ما يحوى من الصلف
وانظر الى صارم الاسلام منغمدا — وانظر الى درة الاسلام في الصدف (٢)

وبكاه كثيرون منهم ابو بكر الخطيب ، وابو تراب الانصارى ، والشريف ابو القاسم وبعد موته بشهر روى ابو الفضل عبد الله بن علي المغربي ، انه رآه ، في منامه قال : " سرت انا وابو علي بن شاذان والقاسم عبيد الله بن احمد بن عثمان الصيرفي الى قبر القاضي ابي بكر بعد موته ... لنترحم عليه . فرفعت مصحفا كان على القبر وقلت : اللهم بين لي في هذا المصحف حال ابي بكر ، وما صار اليه ، ثم فتحت المصحف ، فاذا فيه (يا قوم ارأيتم ان كنت على بينة من ربي . واتاني رحمة من عنده فعميت عليكم ، انلزمكموها ، وانتم لها كارهون) (٣) (٣) .

---

١) تبيين كذب المفترى : ٢٢١ .
٢) تبيين كذب المفترى ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .
٣) سورة هود ١١ : ٢٨ .
٤) ترتيب المدارك ٤ : ٥٨٩ ، تبيين كذب المفترى : ٢٢٢ .

.../..

الفصل الثاني

شخصية الباقلاني الثقافية والفكرية

===

١) الباقلاني قاضيـــــــا :

يذكر القاضي عياض في ترتيب المدارك (١) ، ان الباقلاني تولى القضاء " بالثغـر " (٢) ، وهو امر مبهم غير محدد لكثرة الثغور في الدولة الاسلامية . على اننا نعلم عن طريق السبكـي ان ابن دلوية تولى القضاء بعكبرا من قبل الباقلاني (٣) ، وعكبرا ليست من الثغور ، فلعـل الباقلاني تولى القضاء غير مرة في غير مكان في الدولة الاسلامية . ولعل مما يؤكد هذا الاستنتاج ، ان احدا من المصادر (٤) ، التي وصلتنا لم يحدد التاريخ الذى كان فيه الباقلاني قاضيـــا ولا التاريخ الذى ولي فيه ابن دلوية مع ان لقب " القاضي " نعته به انصاره وخصومه ، وجـرى عليه فلازم اسمــــه .

٢) الباقلاني مالكيـــا :

لقد دعا البعض الى التشكك في مذهب الباقلاني واختلفوا فيما اذا كان مالكيــا ، او شافعيا ، فنسبه مترجمون الى المذهب المالكي (٥) ونسبه آخرون الى المذهب الشافعـي (٦) بينما فئة ثالثة لم تؤكد على شافعيته ولا على مالكيته ، بل تركت مذهبه الفقهي وحددت مذهبـه الكلامي ، فنعتته " بالمتكلم على مذهب الاشعري " (٧) . " وهذا غريب جدا " كما يعلق ابـن كثير ، فينقل عن ابي ذر الهروى (وقد كان هذا تلميذا للباقلاني) ان ابن الطيب كان مالكيـا ويروى عن احدهم انه كان شافعيا ، ويذكر رواية ثالثة ان الباقلاني كان حنبليا يكتب علـى الفتاوى : " كتبه محمد بن الطيب الحنبلـي " (٨) .

---

١) ترتيب المدارك ٤ : ٥٨٦ .
٢) الثغر بلدة حدودية ، تقع في دار الاسلام على حدود دار الحرب او على حـدود البحر من دار الاسلام .
٣) طبقات الشافعية ٤ / ٦٠ .
٤) تاريخ بغداد ٥ : ٣٧٩ ، ترتيب المدارك ٤ : ٥٨٦ .
٥) ترتيب المدارك ٤ : ٥٨٦ ، شذرات الذهب ٣ : ١٦٩ .
٦) البداية والنهاية ١١ : ٣٥٠ .
٧) تاريخ بغداد ٥ : ٣٧٩ ، تبيين كذب المفترى ٢١٧ . تهذيب اللباب ١ : ١١٢ ، وفيات الاعيان ٤ / ٢٦٩ .
٨) البداية والنهاية ١١ / ٣٥٠ .

.../..

وسبب الاختلاف فيه ان الباقلاني لم يكن شافعيا ، بالرغم من قوله في بعض فقهاء الشافعية "اعلم ان هذه الطائفة من اصحابنا" (١) . فالصحبة لا تعني بالضرورة الاشتراك في المذهب ، وقد كان للباقلاني ايضا اصحاب على مذهب ابن حنبل ، فحين قدم بغداد نزل ضيفا على ابي الحسن التميمي الحنبلي (٢) ، وروى ابو الفضل التميمي (٣) قال : "اجتمع رأسي ورأس القاضي ابي بكر محمد بن الطيب على مخدة واحدة سبع سنين" (٤) . ومثل هذا لا يعني ان الباقلاني كان حنبليا مثلا ، فالامر الذى لا شك فيه ان الباقلاني كان مالكيا لان القاضي عياض اورد له ترجمة في ترتيب المدارك واعتبره مالكي المذهب (٥) . وكذلك فعل ابن فرحون في الديباج المذهب (٦) . وقد اثبت تاج الدين السبكي ، لنفي الشك عن مذهب الباقلاني ، مالكيته ، كما اثبت شافعية شيخه الروحي ابي الحسن الاشعري يقول : "كان (الاشعري) شافعيا تفقه على ابي اسحاق المروزي ، وكان القاضي ابو بكر الباقلاني شيخ الاشاعرة مالكيا" . (٧)

ويروى السبكي على لسان رافع الحمال "ان سبب الوهم فيه ان القاضي ابا بكر (الباقلاني) كان يقال له الاشعري لشدة قيامه في نصرة مذهب الشيخ (يعني ابا الحسن الاشعري) وكان مالكيا على الصحيح الذى صرح به ابو المظفر بن السمعاني في (القواطع) وغيره من النقلة الاثبات خلافا لمن زعمه شافعيا" (٨) .

على ان هذا المتكلم على لسان اهل السنة كما اراده عبد القاهر البغدادي في الفرق بين الفرق . والذى هو اليوم - اى في زمن عبد القاهر - "من شموس الزمان رائمة العصر" (٩) .

---

١) طبقات الشافعية ٣ : ٢٠٢ .
٢) هو عبد العزيز بن الحارث التميمي المتوفى سنة ٣٧١ (انظر المنتظم ٧ : ١١٠) .
٣) هو ابن الحارث بن راشد ابو الفضل التميمي المتوفى سنة ٤١٠ (انظر المنتظم ٧ : ٢٩٥) .
٤) تبيين كذب المفترى : ٢٢١ .
٥) ترتيب المدارك ٤ : ٥٨٦ .
٦) الديباج المذهب : ٢٦٧ .
٧) طبقات الشافعية ٣ : ٣٥٢ .
٨) طبقات الشافعية ٣ : ٣٦٦ .
٩) الفرق بين الفرق : ٣٦٤ .

.../..

هو من الطبقة الثانية للاشعرية (١) ، ومن الذين حاولوا الاستقلال في احكامهم الفقهيـــة ، فيجعل الحكم والنصائح للرأى الانسب . وقد اجتهد الباقلاني في الفقه ، وافتى في مسألـــة : هل على الكافر نعمة ؟ فوافق ابا حنيفة في ان على "الكافر نعمة" وترك الاشعرى في فتواه "ليس على الكافر نعمة ... وكل ما يتقلب فيه استدراج" (٢) .

وفي مسألة "امرأة تدعي غيبة وليها ، وتطلب من السلطان ان يزوجها وتحلف فـــي ذلك" (٣) يوافق القاضي رأى الاشعرية في وجوب الاستحلاف "بايجابها او عدمه" بينما يتخلـــى عن فتوى الشافعية التي تجيب المرأة الى طلبها . يقول السبكي في طبقاته "ذهب قدوتنـــا في الاصول الى انها تجاب ، واقصى ما يمكن السلطان ان يستمهلها فان ابت اجابها" واما القاضي فانه "لا يجيبها ان رأى التأخير رأيا ويقول : "لا تجب على اجابتك ما لم احتـــط .. انتهـــــى" (٤) .

٣) الباقلاني متكلمـــا :

لعل ما اثير من مسائل كلامية في مجلس عضد الدولة ، وقد سبق الحديث عنها ـ وفي بلاط ملك الروم لما مثل الباقلاني بلاده سفيرا سنة ٣٧١ هجرية ، وقد ارسله عضد الدولة فـــي جواب رسالة وردت من الملك (٥) ، كانت محط اهتمام من الرواة (٦) ، فتناقلوها لاهميتهـــا وقد دلت هذه المسائل بدقة على طريقة الباقلاني في الكلام ، ومذهبه فيه ، لتعددها وتشعبهـــا فمن مسألة التوحيد والصفات ، الى مسألة الرؤية ثم مسألة الايمان بالمعجزات ، ومنها انشقاق القمـــر

---

١) طبقة الاشعرية الاولى كما رتبها السبكي : "ابن مجاهد الطائي ، شيخ القاضي ابـــي بكر الباقلاني ، وابو الحسن الباهلي شيخه ايضا ـ وبندار خادم الشيخ ابي الحسن الاشعرى" ، والطبقة الثانية منها "ابو بكر الباقلاني والاستاذ ابو اسحاق الاسفرائيني والاستاذ ابو بكر بن فورك وابو علي بن شاذان ، وابو حامد بن دلوية القاضى المولى من قبل الباقلاني علي عكبرا ـ [انظـــر طبقات الشافعية ٣ : ٣٦٨ ـ ٣٦٩] .

٢) طبقات الشافعية ٣/ ٣٨٤ .

٣) طبقات الشافعية ٣ : ٣٨٤ .

٤) طبقات الشافعية ٣/ ٣٥٩ .

٥) تاريخ الكامل لابن الاثير ٩/ ١٦ .

٦) الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٥/ ٣٧٦ ، القاضي عياض في ترتيب المـــدارك ==

../...

وظهوره على محمد صلى الله عليه وسلم [(١)] ، ولسوف ابحث في كل مسألة على حدى علني استوضح رأى الباقلاني فيها .

أ) _ مسألة التوحيـــــد :

ان مسألة التوحيد التي اثيرت بين العقيدتين المسيحية والاسلاميـــة اظهرت الاتفاق بينهما على ان للعالم خالقا ومدبرا ، بينما ظهر اختلافهما في طريقـة التوحيد وطبيعة الايمان ، فعيسى ابن مريم في رأى الباقلاني المؤمن ، ليس ابن اللــه وهذا امر من الامور التي يشدد عليها الاسلام في ناحية التوحيد ، قال تعالى : (مـا اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله) [(٢)] . وعليه فاحياء الموتى وابراء الاكمـة ، والابرص ليس من فعل المسيح ، وانما من فعل الله تعالى .

فالانبياء " لا يفعلون المعجزات من ذاتهم ، وانما هو شيء يفعله اللـه على ايديهم تصديقا لهم " [(٣)] فقد اتى في القرآن ان المسيح فعل المعجزات . (باذن الله) [(٤)] . فاحيا الموتى وابرأ الأكمة والابرص ، لا من ذاته ، كما ان موسى فلـق البحر ، واخرج يده بيضاء من غير سوء لا من ذاته . والمسيح انسان مخلوق كغيـره من البشر ، وقد حصلت المعجزات على يديه تصديقا لنبوته ، واثباتا لرسالته .

فلا يمكن للاله المنزه عن كل شيء ، ان يتجسد انسانا فيقتل ويصلب ويعـذب كغيره من البشر ، وهو القادر على ان ينجي نفسه من الهلاك وليس فعله هذا ، فيما لو اتى

== ٤ : ٥٩٤ _ ٥٩٩ ، وكان القاضي عياض مكثرا في نقلها وتنويعها ، ابن الجوزي في المنتظم ٧ : ٢٦٥ ، ابن الاثير في تاريخه الكامل ٩ : ١٦ ، ابن كثير في البداية والنهاية ١١ : ٣٥٠ ، ثم ابن الحسن النباهي في تاريخ قضاة الاندلس : ٣٧ _ ٤٠ ، وقد نقل ابو الحسن عن القاضي عيـــاض .

١) ترتيب المدارك ٤ : ٥٩٨ .
٢) سورة المؤمنون : ٩١ ، ترتيب المدارك ٤ : ٥٩٨ .
٣) ترتيب المدارك ٤ : ٥٩٩ .
٤) سورة آل عمران : ٤٩ ، ترتيب المدارك ٤ : ٥٩٩ .

.../..

به بحكيم ، لان الحكمة تمنع من التعرض للبلاء ومن كان غير حكيم يبطل ان يكون الها (١) .

ب) الصفات الالهيـــة :

١) القـــدرة :

اثار الاحدب (٢) ، رئيس معتزلة بغداد (٣) ، في مجلس عضد الدولة مسألة القـــدرة الالهية في وضع من الاحتمالات ، وكانت في " هل لله ان يكلف الخلق ما لا يطيقـــون (٤) ". وقد شق الباقلاني المسألة الى قسمين : ١ ـ مسألة التكليف ، ٢ ـ ومسألة ما لا يطاق (٥) . واجاب ان التكليف المجرد موجود من الله تعالى كقوله : (انبئوني باسماء هؤلاء ..) (٦) . واما ما لا يطاق فوجوده غير وارد ، لان المكلف اما ان يكون عاجزا لا يستطيع تحمله ، واما ان يكون كافرا ، فيعجز عن الايمان لاشتغاله بالكفر ، وقد استشهد الباقلاني على هذا بـأن الله تعالى اثنى على من سأله الا يكلفه ما لا يطيق بقوله (ولا تحملنا مالا طاقة لنا به) (٧) .

فالله في نظر الباقلاني قادر على ان يخلق ما يشاء وفي اية ساعة يشاء ـ الا انه لا يفعـــل لوعده ايانا بيوم الحساب (٨) . وقد يخرق العادة ويخلق انسانا من غير ابوين ، فتتغير بهذا الخلق سنة الحياة التي ارادها لنا ، ويكون هذا التغيير الذي يحصل فرارا من الزحـــف ، لان الله اراد للانسان ان يخلق عن طريق ابوين ليجري عليه ما يجري على بني آدم مـــن ثواب وعقاب بعد الموت . وقد وردت مناظرة بهذا الشأن على النحو التالـــــي : " قـــال ابـــو سليمـــان (٩) ، هـــذا : القاضـــي يقول ان البـــــاري

---

١) ترتيب المدارك ٤ : ٦٠٠ ، تاريخ قضاة الاندلس ٣٨ : ٤٠ .
٢) هو ابو الحسن الاحدب متكلم جدل حاذق (انظر طبقات المعتزلة : ١٢٢)
٣) ترتيب المدارك ٤ : ٥٩١ .
٤) ترتيب المدارك ج ٤ : ٥٩١ .
٥) ترتيب المدارك ج ٤ : ٥٩٢ .
٦) سورة البقرة : ٣١ ، ترتيب المدارك ٤ : ٥٩١ .
٧) سورة البقرة : ٢٨٦ ، ترتيب المدارك ٤ : ٥٩٢ .
٨) ترتيب المدارك ٤ : ٥٩٥ .
٩) هو محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني له من الكتب : مقالة في مراتب قوى الانســان وكيفية الانذارات التي ينذر بها النفس مما يحدث في عالم الكون (انظر الفهرست لابـــن النديم : ٣٦٦) .

../..

سبحانه قادر على ان يركب عشرة انفس في ذلك المركب الذي في دجلة ، فاذا وصلوا الى الجانب الاخر يكون الله قد زاد فيهم آخر فيكونون احد عشر ، ويكون الحادي عشر قد خلقه الله في ذلك الوقت ، ولو قلت انا لا يقدر على ذلك ، او هو محال ، قطعوا لساني وقتلوني ، وان احسنوا الي كتفوني ورموني في الدجلة ، واذا كان الامر كما ذكرت لم يكن لمناظرتي معه معنى .

فالتفت الوزير الى القاضي الباقلاني وقال : ما تقول ايها القاضي ؟ فقلت : ليس كلامنا ها هنا في قدرة الباري تعالى وهو قادر على كل شيء ... فلا يجوز ان يخلق اليوم انسانا من غير ابوين ، فاذا كان ذلك فقد علم الوزير ان هذا فرار من الزحف"[1] .

ولما تهيأ الباقلاني للخروج الى القسطنطينية سنة ٣٧١ هجرية [2] عرض عليه استشارة المنجمين ، فلم يرض لان الله تعالى وحده هو القادر على ان يؤتي بالحسن والسيء ، وليس للكواكب والنجوم او للمخلوقات الاخرى من تأثير على البشر ، فقد وضعت كتب المنجمين ليتمحشوا بها ليس اكثر [3] .

٢) الارادة :

يرى الباقلاني ان معجزات الانبياء عليهم السلام ليست من ذاتهم ، وافعالهم ليست بارادتهم دون ارادة الخالق ، اذ ان المعجزات التي ظهرت على يدي المسيح ، هي بارادة الله تعالى ، كما ان المعجزات التي ظهرت على محمد هي بارادة الله . وذلك امر قد سبق الحديث عنه من قبل . فلو كان المسيح يحي الموتى ويبرئ الاكمة والابرص من ذاته كما يقول الباقلاني برواية القاضي عياض ـ لجاز ان يقال : ان موسى فلق البحر ، واخرج يده

---

١) ترتيب المدارك ٤ : ٥٩٤ .

٢) كان سفر الباقلاني الى القسطنطينية في عهد الخليفة الطائع لله وقبل وفاة عضد الدولة بسنة واحدة ـ (انظر تاريخ الكامل لابن الاثير ٩ : ١٦ ـ ١٨) .

٣) ترتيب المدارك ٤ : ٥٩٤ .

.../..

بيضاء من غير سوء من ذاته [١] ، ولما كان لا يستطيع فالله سبحانه وتعالى هو المريد وهو المستطيع .

٣) مسألة الرؤيـــة :

ان مسألة الرؤية في رأي الباقلاني قائمة وتحصل بالادراك ، وقد اختلف رأيه هذا مع ابي اسحاق النصيبيني [٢] وهو معتزلي من البصرة لازم مجلس عضد الدولة في شيراز ، فأنكر رؤية الله ، اذ ان الله تعالى — في رأيه — لا يرى في الاخرة و"كل شيء يرى بالعين .. يكون في مقابلة عين الرائي " ، فكيف يرى الله تعالى ؟ اجاب ابو بكر : " لا يرى بالعين " ، وانما : " يرى بالادراك الذي يحدثه الله تعالى في العين وهو البصر " [٣] ، وقد سند الباقلاني حجته بمثل اتاه على رجل اسمه الاجهر وهو اعمى : " فلو كان يرى المرئي بالعين ، لكان يجب ان يرى بكل عين قائمة ، وقد علمنا ان الاجهر عينه قائمة ولا يرى شيئا " [٤] .

ان تعليل الباقلاني هذا بدائي ، ليس به تحديد لعملية البصر . التي تحصل بواسطة جهاز العين ، وليس مستبعدا ان يصدر عن الباقلاني مثل هذا التحديد ، وهو الذي يجهل كيفية تركيب الجهاز ، والتقاط الصور ، ومن كان مثله لا بد ان تنخدع حواسه بالاشياء الظاهرة ، فما يظهر سليما معافى قد يكون به مرض او علة ، وهذا ما حصل حين اورد مثل الاجهر .

ورأى الباقلاني في رؤية الله بالادراك لفكرة اعملها بعد جهد وتفكر وهو الاشعري الذي يعتقد بان الله قادر على ان يخلق هذا الادراك في الاشياء في كل وقت وحين ،

---

١) ترتيب المدارك ٤ : ٥٩٦ .

٢) هو ابو اسحاق ابراهيم بن علي النصيبيني او النصيبي اخذ على ابي عبد الله — (انظر طبقات المعتزلة ١٢٢ ، والمنتظم ٧ : ١٧٩ ، وانظر اخلاق الوزيرين لابي حيان التوحيدي : ٢١١) .

٣) ترتيب المدارك ٤ : ٥٩٣ .

٤) ترتيب المدارك ٤ : ٥٩٣ .

.../..

ومتى يشاء ، وبالتالي فهو قادر على ان يخلق في عين الاجهر الصياء الادراك لرؤيته تعالى .

د) مسألة الايمان بالمعجزات :

حاول القاضي ـ المتكلم الباقلاني ـ ان يقرن الحجة بالحجة ، ويقابل الاشكال بالاشكال "فمسألة انشقاق القمر" المذكورة سابقا قابلها بمسألة "المائدة المنزلة من السماء" فحين سئل : لماذا انحصر خبر انشقاق القمر في فئة من الناس دون فئة ولم يظهر على مختلف الاصقاع والبقاع ، وهل يصح تصديق خبر يرد الينا كهذا ؟ ادرك ان عليه ان يحسن تخلصه بحجة موجبة تلزم خصمه وتفحمه .

ويتفطن الباقلاني اذ ذاك الى حجة مقابلة فيسأل السائل عن خبر المائدة المنزلة من السماء ، لماذا لم يرها اليهود والمجوس والبراهمة وغيرهم ، وهل من نسبة بينهم وبينها ؟ (١) . في نظر الباقلاني ان الكسوف اذا حصل يراه من كان بمحاذاته فقط ، وليس جميع اهل الارض ، وكذلك انشقاق القمر ، فقد رآه من اتفق نظره اليه في تلك الحال ، ولم يره جميع الناس لانهم لم يكونوا على اهبة ووعد لانشقاقه .

الا ان برهان الباقلاني هذا يلزمه اجماع عليه ، ليتم لنا العلم الضروري به وقد استدرك نقص ان برهانه ، كما ان برهان المائدة المنزلة من السماء ناقص . وليس عليه وهو المؤمن المسلم الا ان يقر بصحة الخبر المتناقل اليه في انشقاق القمر ، كما اقر المؤمن المسيحي بصحة خبر المائدة المنزلة ، لان مسألة الانشقاق تعتمد على الايمان اكثر من اعتمادها على البرهان ، فهي معجزة حصلت لتصديق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (٢) . كما حصلت معجزة المائدة لتصديق نبوة عيسى عليه السلام . وقد ورد الينا الخبر في المعجزتين بالتواتر كما يقول الباقلاني (٣) .

١) ترتيب المدارك ٤ : ٥٩٧ .
٢) ترتيب المدارك ٤ : ٥٩٧ ـ ٥٩٨ .
٣) لنا عودة حول مسألة المعجز في كتابي البيان واعجاز القرآن للباقلاني .

.../..

ولقد كانت اثارة طبيعة الايمان ، ومسألة التوحيد في مجلس ملك الروم – كما سماه ابن الاثير في تاريخه (١) – قد دفعت الفوضى والبلبلة الى البلاط ان تتفاعل وتتفشى في الاوساط الاخرى ، مما دعا هذا المجلس ان يجمع فيما بعد على اتخاذ قرار يقضي باخراج الباقلاني وصحبه من بلادهم ، في وقت سريع خوفا من ان تفشى اراؤه بينهم فيفسد الرعية ، ويوقع الفتنة – فأجيب طلبه ، واطلق سراح عدد من اسارى المسلمين والمصاحف وعاد الباقلاني محملا بالهدايا ، وقد ارفق بحراسة من جند الملك ، حتى وصوله مع مرافقيه الى ديارهم آمنين (٢) .

كما ان مسألة القدرة الالهية والارادة والرؤية كانت مثارة من قبل في مجلس عضد الدولة ، وهذا امر لا بد منه ، فالباقلاني اينما حل كان يثير او تثار في حضرته مسائل كلامية ، وهو المتكلم الذي يستفتى ويسأل في امور الدين والدنيا فيعلم ويصنف المؤلفات التي كثرت في اصول الفقه والكلام ، وهو الذي بقي حتى آخر ايامه يجند نفسه لكل طارئة تحصل . فيحاول دفع الفتنة عن البلاد التي سببها قرواش بن المقلد باعلانه العصيان على القادر بالله سنة ٤٠١ هجرية (٣) كما مر الحديث عنه .

---

١) الكامل في التاريخ ٦ : ١٦٦ .
٢) ترتيب المدارك ٤ : ٥٩٧ – ٦٠٠ ، تاريخ قضاة الاندلس ٣٨ – ٤٠ .
٣) المنتظم ٧ : ٢٤٨ .

.../..

الفصـــل الثالـــث

مؤلفـــــات الباقلانـــــي

====

للباقلاني مؤلفات كثيرة ، الا ان معظمها فقد ، ولم يصلنا منها غير العدد القليل ، وقد حقق بعضه باحثون ، واظهروه كتبا ، وبقي بعضه مخطوطا في دور المكتبات كمكتبة الازهر في القاهرة ، والظاهرية في دمشق . واما الكتب التي لم تصلنا فهي كثيرة جدا ، منها ما ذكر في مصدر واحد ، ومنها ما ذكر في اكثر من مصدر ، ولا نعرف عن هذه الكتب اكثر من عنوانها ، وقد يكون العنوان اشارة الى فحوى الكتاب وقد لا يكون الا اننا لا نستطيع ان نفعل شيئا ازاء هذه العناوين المختلفة ، سوى ترتيبها تحت مجموعات تضمها . ولربما السنين المقبلة تظهر لنا شيئا من عبارات او اشارات او تظهر لنا المخطوطات نفسها ، فتدلنا على ما وضع الباقلاني من تصانيف ، ترشدنا الى سعة علمه وغناه في هذا الحقل من التأليف ، فالتراث العربي ، ما زال معظمه مغمورا ، وما زالت مخطوطات كثيرة لم يكشف النقاب عنها بعد لتضعنا في طور الحكم النهائي ، على نتاج كبار الكتاب ، من علماء وفلاسفة وادباء وشعراء . ولسوف اضع ترتيبا خاصا بكتب الباقلاني ومؤلفاته ، فالتي وصلتنا اولا ، ثم التي لم تصلنا ، ولهذه الاخيرة تقسيم خاص بحيث ان لكل مجموعة منها عنوانا .

أ) الكتب التي وصلتنا :

كتاب التمهيد (١) في الرد على الملحدة ، والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة ، وكتاب سؤالات الري (٢) ، وكتاب البيان (٣) عن الفرق بين المعجزات والكرامات

---

١) نشر هذا الكتاب مرتين ، في المرة الاولى حققه ونشره الدكتور محمد عبد الهادي ابو ريدة ، والدكتور محمد محمود الخضيري (طبعة القاهرة ١٣٦٦ / ١٩٤٧) وقد خرجت هذه النشرة ناقصة لاعتمادها على مخطوط باريس فقط ، وهذا مما دفع فيما بعد الاب رتشرد يوسف مكارثي اليسوعي الى ان يبحث عن المخطوطين التركيين اللذين اشار اليهما الاستاذ هلموت ريتر فحقق من جديد في فحوى كتاب التمهيد ، فوجد ان القسم الناقص يتعدى ثلث الكتاب ، فيرتئي ان يتبع الابواب التي تخص علم الكلام بمحتوى النشرة الاولى ، وان يسقط الابواب المتعلقة بالامامة ، ويعتبرها مدخلا لكتاب آخر هو "مناقب الائمة" وقد اصدر الكتاب بعد تحقيقه في بيروت (١٣٧٦ / ١٩٥٧) .

٢) هذا الكتاب صدر ضمن مجموعة كتب لمؤلفين آخرين (جامعة دمشق ١٩٦٦) وهي كتاب في التعريف للامام عبد القاهر الجرجاني ، كتاب فيه الممدود والمقصور لابي اسحاق الزجاجي ، فصل فيه مختصر في ذكر الالقاب لابي قاسم ابن الانباري ما تجب معرفته على ذي الادب من شعر العرب .

٣) تحقيق الاب رتشرد يوسف مكارثي اليسوعي (المكتبة الشرقية بيروت ١٩٥٧) .

.../..

والحيل والكهانة ، والسحر والنارنجات ، وكتاب اعجاز القرآن (١) ، وكتاب الانصاف في اسباب الخلاف (٢) ، وفيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به وكتاب نكت الانتصار لنقل القرآن (٣) .

ومن الكتب الموجودة والتي ما تزال مخطوطة في مكتبتي الازهر والظاهرية ، وكتابان لم اطلع عليهما وهما : كتاب " هداية المسترشدين والمقنع في اصول الدين "(٤) ، وكتاب " مناقب الائمة ونقض المطاعن على سلف الامة (٥) .

ب) الكتب التي لم تصلنا :

من هذه الكتب التي لم تصلنا مجموعة يستدل من عناوينها على انها في علم الكلام والدفاع عن الدين ، والرد على اهل الجحد والعناد والرد على الباطنية والمعتزلة ، والكلام في تحديد المعدوم والموجود وهي : كتاب في كيفية الاستشهاد في الرد على اهل الجحد والعناد بما يستغني عن التراداد (٦) وكتاب شرح اللمع (٧) وكتاب الهداية (٨) وكتاب رسالة الحرة (٩) وكتاب

---

١) تحقيق احمد صقر (دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٣) .
٢) لم يذكر القاضي عياض هذا الكتاب في "ترتيب المدارك" ، حقق هذا الكتاب محمد زاهد الكوثري (القاهرة ١٩٦٣) .
٣) هذا الكتاب متمم لكتاب اعجاز القرآن ، ومختصر لكتاب "الانتصار لنقل القرآن وقد اختصره الشيخ ابو عبد الله الصيرفي ، ورتب نسخه الشيخ عبد الجليل بن ابي بكر الصابوني ، بين القرن السابع والثامن الهجري ، وصدر الكتاب عن دار المعارف بالاسكندرية وقد حققه محمد زغلول سلام .
٤) في مكتبة الازهر قسم من هذا الكتاب بخط محمد بن عبد الله العدوي المتوفى بمدينة صور سنة ٤٥٩ ويشتمل المخطوط على ٢٤٨ ورقة (انظر مذاهب الاسلاميين لعبد الرحمن بدوي ١ : ٥٩٠) .
٥) ان الجزء الثاني من هذا المخطوط موجود في مكتبة دمشق العمومية - دار الكتب الظاهرية - تاريخ المخطوط وملحقاته في فهرست ليوسف العشي صفحة ٨٤ - ٨٥ رقم ٦٦ جزء ٢ ، ١٣٦٦ / ١٩٤٧ (انظر تاريخ الادب العربي لكارل بروكلمن ٤ : ٥١) .
٦) التمهيد : ١٨٧ (طبعة ١٩٥٧) ، ترتيب المدارك ٤ : ٦٠١ .
٧) البيان : ٨٨ ، ترتيب المدارك ٤ : ٦٠١ ، الشامل في اصول الدين : ١٩٢ .
٨) الشامل في اصول الدين : ٣٥٠ ، ٥٧٠ ، التبصير في الدين لابي مظفر الاسفرائيني : ١٧٤ ، ترتيب المدارك ٤ : ٦٠١ .
٩) ترتيب المدارك ٤ : ٦٠٢ ، الفصل لابن حزم ٤ : ٢١٦ .

.../..

دقائق الكلام [١] ، وكتاب الرد على الباطنية [٢] الذي سماه كشف الاسرار وهتك الاستار وبطلان نسب هؤلاء الى امامة علي كرم الله وجهه ، وكتاب اكفار الكفار المتأولين وحكم الدار [٣] ، وكتاب تصرف العباد والفرق بين الخلق والاكتساب وقد ورد في التبصير تحت عنوان الكسب [٤] ، وكتاب المعتزلة فيما اشتبه عليهم من تأويل القرآن [٥] ، وكتاب في ان المعدوم ليس بشيء [٦] .

وهناك مجموعة من الكتب يستدل من عناوينها انها في الفقه واصوله اذ انها تدور حول شرائع الاسلام والاحكام والعلل وفرائض الدين ومختلف المسائل والمجالسات وكذلك في الامامة باختلاف ادوارها ومن هذه الكتب : كتاب التقريب والارشاد في اصول الفقه [٧] ، وكتاب الاحكام والعلل [٨] ، وكتاب النقض الكبير [٩] ، وكتاب نقض النقض [١٠] ، وكتاب التبصرة [١١] ، وهذا الكتاب هو تبصرة للمسترشدين وبيان للمتوسمين كما عرفه الباقلاني في كتاب التمهيد وفي فصل الامامة [١٢] .

وكذلك اورد القاضي عياض مجموعة من هذه الكتب الفقهية والرسائل في "ترتيب المدارك" منها : "كتاب التعديل والتجوير وكتاب الامامة الكبيرة والامامة الصغيرة وكتاب الاصول الصغير ، وكتاب مسائل الأصول وكتاب امالي اجماع اهل المدينة ، وكتاب

---

١) ترتيب المدارك ٤ : ٦٠١ ، البداية والنهاية ١١ : ٣٥٠ .
٢) ترتيب المدارك ٤ : ٦٠٢ ، طبقات الشافعية للسبكي ٤/٢ ١٩٢ ، البداية والنهاية ١١ : ٣٥٠ .
٣) ترتيب المدارك ٤ : ٦٠١ .
٤) ترتيب المدارك ٤ : ٦٠١ ، التبصير في الدين : ١٧٤ .
٥) ترتيب المدارك ٤ : ٦٠١ .
٦) ترتيب المدارك ٤ : ٦٠١ .
٧) التبصير في الدين : ١٧٤ ، ترتيب المدارك ٤ : ٦٠١ ، طبقات الشافعية ٣ : ٢٠٢ .
٨) الشامل في اصول الدين : ٤٧٨ ، ترتيب المدارك ٤ : ٦٠١ .
٩) الشامل في اصول الدين ٥٧٠ .
١٠) التبصير في الدين : ١٧٤ .
١١) ترتيب المدارك ٤ : ٦٠٢ ، البداية والنهاية ١١ : ٣٥٠ .
١٢) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) ٢٣٩ .

.../..

فضل الجهاد ، وكتاب المسائل والمجالسات المنثورة وجواب اهل فلسطين ، والبغداديات والنيسابوريات ، والجرجانيات ومسائل سأل عنها ابن عبد المؤمن ، والاصبهانيات ، وكتاب البيان عن فرائض الدين وشرائع الاسلام ووصف ما يلزم من جرت عليه الاقلام من معرفة الاحكام ، وكتاب مختصر التقريب والارشاد الاصغر ، وله الاوسط ، وكتاب على الحدود على ابي طاهر محمد بن عبد الله بن القاسم ، وكتاب المقدمات في اصول الديانات [1].

كما عدد ابن كثير في البداية والنهاية كتابين لم يشر اليهما القاضي عياض وهما : "كتاب المجاميع الكبار ، وكتاب المجاميع الصغار" [2].

ومن مؤلفات الباقلاني مجموعة اخبارية الطابع ، وقد شملت مادتها الاخبار عن وجود الشياطين والمتناسخين ، ونصرة بني العباس وامامتهم ، وكذلك الاخبار في الدماء وما جرى بين الصحابة ، وقد اورد القاضي عياض مجموعة منها : "كتاب على المتناسخين ، وكتاب في نصرة بني العباس وامامة نبيه ، وكتاب في الدرامات ، وكتاب الدماء التي جرت بين الصحابة رضي الله عنهم ، وكتاب في امامة بني العباس ورسالة الامير" [3]، وورد ايضا كتاب "الابانة عن وجود الشياطين ، وذكر الادلة على ذلك والاخبار عن معنى الكهانة وما ورد في اخبارهم [4].

وتحت مجموعة فن الادب يمكن ان يرتب الدارس كتابين من كتب الباقلاني وهما : كتاب شرح ادب الجدل [5] ، وكتاب الجاحظ [6].

---

١) ترتيب المدارك ٤: ٦٠١ ـ ٦٠٢ .
٢) البداية والنهاية ١١: ٣٥٠ .
٣) ترتيب المدارك ٤: ٦٠١ ـ ٦٠٢ .
٤) البيان : ١٠٨ ، اعجاز القرآن للباقلاني : ٢٩٩ ، شذرات الذهب ٣: ١٦٩ .
٥) ترتيب المدارك ٤: ٦٠١ .
٦) ترتيب المدارك ٤: ٦٠١ .

.../..

البـــــاب الثانـــــي

اثار الباقلانـــــــــــــــــــــي

======

بسم الله الرحمن الرحيـــــم

﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتـــــــــاب
منيـــــر﴾

سورة الحج : ٨
سورة لقمان : ٢٠

﴿وما يعلم تأويله الا الله ...
والراسخون في العلم
وما يذكر الا اولو الالبـــــاب﴾

سورة آل عمران : ٧

الفصـــــــــــل الاول

حـــول كتـــاب البيـــــــــــــان

=====

اولا : حول كتاب البيـــــان :

لا شك ان كتاب البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات [١] من الكتب التي صنفها الباقلاني بعد كتب الامالي والمصنفات [٢] واصول الديانات [٣] وكتابي التمهيد وشرح اللمع [٤] وكتاب الابانة [٥] وذلك لذكره هذه الكتب جميعها في كتاب البيـــــان .

ويعتقد الاب مكارتي ان الباقلاني الف هذا الكتاب في اواخر حياته [٦] . والكلام فيه يتناول المعجز فالمعجز في نظر الباقلاني "آيات تدل على صدق الرسل" [٧] وقد حدد معناه والغاية من ظهوره على الانبياء دون غيرهم . ثم حاول ان يميز بين المعجز والعادة وبين المعجز والحيل والشعوذة ثم بين المعجز والسحر ، بعد ان اثبت وجود السحر والشياطين والملائكة ، فأثار بذلك مسألتين رئيسيتين : مسألة القدرة الالهية ، ومسألة الايمـــــان .

وقد كان الكتاب غنيا ومنسقا من حيث المحتوى ، اذ عقد الباقلاني فصلا مستقلا لكل من الموضوعات التي ذكرتها عن الكتاب اعلاه ، فكان الفصل الاول : في حقيقة المعجز ومعناه وفي وجود العادة [٨] وكان الفصل الثاني : في خصائص الرسل وظهور المعجز [٩] . والفصل الثالث : كان في الفرق بين المعجز والحيل والنارنجات والشعوذة [١٠] . واما الفصل الرابع فكان في وجود السحر والفصل بينه وبين المعجز وبين الساحر والملاك والشيطان [١١] . وسوف اعرض فيما يلي موقف الباقلاني من كل هذه القضايا فأحلل كلا منها على حدة وابين لبعضها ابعادها الكلامية الرامية لاظهار نظر الباقلاني : ثم انطلق الى تبيان ما تعنيــــه

---

١) كتاب البيان للباقلاني تحقيق الاب مكارتي اليسوعي ـ المكتبة الشرقية بيروت ١٩٥٨ .
٢) البيان : ١٢ .
٣) البيان : ٦١ ، ٦٥ .
٤) البيان : ٨٨ .
٥) البيان : ١٠٨ .
٦) مقدمة كتاب البيان للاب مكارتي اليسوعي : ١٩ .
٧) البيان : ٨ .
٨) البيان : ٨ ـ ٣٦ ، ٤٥ ـ ٤٦ ، ٤٩ ـ ٥٥ .
٩) البيان : ٣٧ ـ ٤٤ ، ٦١ ـ ٧٠ .
١٠) البيان : ٥٦ ـ ٦٠ ، ٧١ ـ ٧٦ .
١١) البيان : ٧٧ ـ ١٠٨ .

../...

بالنسبة لموقفه من القضيتين اللتين يلعرضهما وهما – كما ذكرت قبل قليل – مسألة القدرة الالهية ومسألة الايمان .

أ) تحديد المعجز لدى الباقلاني :

يذكر الباقلاني ان اهل اللغة وصفوا آيات الرسل بالمعجز ، لاثباتهم عجز العباد عنها [(١)] والباقلاني يخالف اهل اللغة في تعريفهم هذا لمعنى المعجز ، اذ ان المعجز يكون في انفراد "الله عز وجل بالقدرة عليه ولا يصح دخوله تحت قدر الخلق من الملائكة والبشر والجن" [(٢)] ويعتبر ان وصف اهل اللغة للمعجز وصف صحيح من حيث التسمية وخاطئ من حيث النظر والحجة نحو كمثل تأليه الاصنام وهي ليست آلهة لانها غير قادرة على كشف الضر والبلوى" [(٣)] .

وهذا التعريف يجب ان لا يقارن عجز الخلق او قدرتهم بقدرة الله تعالى فان قدرة الله ينفرد بها وحده كخلق البشر ، او يدخلها تحت قدرات العباد فيحصل المعجز او العمل الخارق ، وهذا امر دعا البعض – كالقدرية – الى الظن ان لله قدرة خاصة به ، يعجز عنها البشر ، وان للعباد الخارقين – او المعاجزة كما يسميهم الباقلاني – قدرة اخرى تخصهم ، نحو تفريق اجزاء الجبال ، وتغييض ماء البحار ، ونظم القرآن [(٤)] .

الا ان الباقلاني يقسم القدرة الالهية التي تدخل تحت قدرات العباد في قسمين :
١ – قليل معتاد لا يدل على علم فاعله وقصده ، مثل : الكلمة وكتابة الحرف والحرفين – ويعني ، الباقلاني ، بهذا ان العمل القليلة لا تفي بالمعنى ولا تدل على مدى علم صاحبها – ٢ – ومنها كثير غير معتاد ، يدل على علم فاعله وقصده [(٥)] ، مثل : نظم القرآن . ثم يميز بين الافعال التي تدخل تحت قدرات العباد ، وتصبح معجزة لمن تحصل له ويتحدى بها لخرقها العادة ، والافعال التي تخرج بضرب من الحيل والمخاريق

---

١) البيان : ١٣ .
٢) البيان : ٨ ، ١٧ .
٣) البيان : ١٣ .
٤) البيان : ١٤ .
٥) البيان : ٢٣ – ٢٤ .

.../..

وهذه ايضا تدخل تحت قدرات العباد ، فالطفر من الشرق الى الغرب والصعود الى السماء ، وحمل الجبال الراسيات ، افعال تأتي من الله تعالى تحت قدرات العباد ، ولا تتم بالسحر والشعوذة لمن تحصل له ويتحدى بها ، واذا حصل وكانت خرقا للعادة تصبح معجزة (١) ، واما الافعال التي تتم بالسحر والشعوذة كمثل سعي الحيات ، وقد يجوز ان تخدر ثم تعود من جديد تسعى ، بعد ان يزول عنها الخدر بدواء ثان ، كما فعل سحرة فرعون ، وما يفعله ابن هلال والحلاج (٢) ، وغيرهما من حيل ومخاريق فقد يخرج احدهم حمامة حيا من تنور يتأجج ، او قد يدخل بيتا لحامة فيصبح عذبا (٣) ، فاذا "اراد الانسان ان يمتحن كذبهم ، وجب ان يدفع اليهم برمة بالية ، وعظاما نخرة ويقول لهم : احيوا هذا" (٤) ، فسرعان ما يكشف كذبهم ويبطل ادعاءهم .

وحيث ان هناك غير نوع من انواع المعجز ، فان الباقلاني يحاول ان يفاضل بين نوعين بارزين من هذه الانواع ، فيرى ان الاعجاز في نظم القرآن وبلاغته ابلغ من اعجاز ابراء الابرص ، وقلب العصا ثعبانا ، اذ ان هذه المعجزات ، قد يداخلها الشك والشبهات ، وقد تتم بحيل ومخاريق ، كأن يكون من يظن به ميتا مخدر بواسطة ادوية وعقاقير وحين تذهب عنه يحيا (٥) ، كذلك قد تكون مثل هذه المعجزات متأتية بالاكتساب وبالنقل عن الغير ، بينما بلاغة القرآن "طباعة وليست بامور مكتسبة" (٦) ، وهي توجد في النفس ، والدليل على ذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا في قوم كانوا افصح العرب ، وابلغهم ، واعظمهم تقدما في اللسن ، ولما عجزوا تحداهم ان يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ايضا ، ولم يستطيعوا ، فدعوا الى حربه (٧) .

لماذا لا يدخل المعجز تحت قدرات العباد :

يسلم الباقلاني ان ليس باستطاعة العبد ان يأتي بالاجسام ، والالوان ، والحياة لانه مخلوق من الله تعالى وهو عرض مثلها ، والعرض لا يخلق العرض ولا يفعله ، والفاعل

---

١) البيان : ٧٢ .
٢) البيان : ٧٤ .
٣) البيان : ٧٥ ـ ٧٦ .
٤) البيان : ٧٤ .
٥) البيان : ٢٦ ـ ٢٧ .
٦) البيان : ٢٧ .
٧) البيان : ٢٧ .

٠٠/٠٠٠

هو مكتسب من الخالق سواء كان " بشرا او ملائكة او جنا " ولا يصح ان توجد افعاله الا في محل قدرته غير متعدية عنه (١) ، فلو قدر القادر منا على فعل الاجسام لوجب لا محالة وجودها في نفسه وحيزه ، مما يوجب اجتماع الجسمين والاجسام الكثيرة في حيز واحد وهذا محال . كما انه محال ان يقدر القادر منا على فعل عرض في غيره فيوجد العرض في محلين ، ومحال ايضا ان توجد الذات الواحدة في حيزين ، والا فانه اذا حصل يصبح الجوهر الواحد الذي لا ينقسم في حيزين وهذا محال ، لان الجوهر لا يتجزأ ولذلك لا يقدر القادر منا على فعل عرض في غير محل قدرته . وعلى هذا يبطل الباقلاني القول بالتولد — وهذه فكرة اعتزالية — ودون المخلوق فاعلا في غير محل قدرته (٢) .

وقد خرج الباقلاني من هذا كله الى نتيجة واضحة كان بها يرد على بعض المعتزلة من القدرية . فالعباد لا يقدرون على الابداع والاختراع (٣) لان قدرتهم مخلوقة فيهم من الله تعالى ، وهي تختلف عن قدرة الله المبدعة المخترعة باستمرار ، ولو صح ما يدعيه هؤلاء القدرية من قدرة العباد على الابداع ، لوجب ان يكون العبد القادر على الخلق محدثا للاعراض من الاكوان والعلوم والارادات ، وان يكون قادرا على احداث سائر الاجناس من الجواهر ، والالوان ، والحياة ، والاسماع ، والابصار ، وسائر الادراكات ، مما لا يمكن له ان يحصل على الدوام كما برهن الباقلاني ، فلو امتنع حدوث جنس من الاجناس ، لامتنع حدوث سائر الاجناس — هذا من جهة العباد — بينما لا تنحصر قدرة الله تعالى في احداث جنس دون جنس فهو قادر على احداث سائر الاجناس من الجواهر والالوان (٤) .

ب) المعجز والعادة :

ومن صفة الاعجاز ان يكون خارقا للعادة التي يحددها الباقلاني " بتكرار علم العالم بوجوه الشيء المعتاد على طريقة واحدة " وذلك " اما بتجدده عقيبه وتكررها او ببقائه على

١) البيان : ٦٤ — ٦٥ .
٢) البيان : ٦٤ .
٣) البيان : ٦٦ — ٦٧ .
٤) البيان : ٦٧ .

٠٠/٠٠٠

حالة واحدة "[١] ، ففلان مثلا من عادته اهداء السلام واطعام الطعام ، وحماية الجار[٢] ويصف الباقلاني "المعتاد على الشيء" هو كل من تتكرر وتتجدد علومه للشيء حالا بعد حال وجوده[٣] . ولا يجوز ان يكون القديم تعالى حاملا هذا الوصف لتعاليه عن الالفة ، والنفور ، والتعجب ، والاستطراف[٤] ، لهذا ينفي وصف القديم "بالاعتياد" فلا يقول انه تعالى معتاد على فعل كذا وكذا ، فهذا القول – في نظره – يستعمل لمن تتكرر علومه وتتجدد ، والقديم في غنى عن التكرار والتجدد ، ولهذا قسم الباقلاني العادة الى ضروب منها : ما يستوي فيها جميع الناس ، وجميع اهل عصر واحد . وعادة ينفرد بها بعض الناس دون بعض ، او تكون لاهل عصر دون غيرهم ، وهناك عادة للملائكة فقط واخرى للجن فقط . وثالثة للانس[٥] ، ومن صفة هذه العادات ان لا يخرق بعضها بعضا ، وينقض بعضها البعض ، ولا تتساوى مع بعضها الا بقدرة الله تعالى وذلك اذا اراد ان يدل على صدق الرسل بمعجز يخرق عادة البشر "كاحياء الميت او قلب العصا حية "[٦] ، فالله "ان ارسل بشرا ، ارسله بما يخرق عادة البشر ، وان ارسل جنيا اظهر على يده ما هو خارق لعادة الجن "[٧] .

ج) المعجز والانبياء والرسل :

ان الباقلاني استطاع ان يميز دوام العادة عن انخراقها ، فحين تنخرق بمعجز يحصل بقدرة الله تعالى على يد احد رسله ، يستطيع ذلك الرسول ان يدعو الناس الى تصديقه ، كما فعل عيسى لدى احياء الميت ، وموسى لدى قلب العصا حية ، فيدعي الرسالة على الله تعالى ، ويخبر عن وحيه له[٨] ، فهو السفير بين الله وبين خلقه لان المعجز كما عرفناه سابقا آيات تظهر على النبي يتحدى بها ، فتكون حجة له على غيره من المدعين الكاذبين[٩] .

---

١) البيان : ٥٠ .
٢) البيان : ٥٠ .
٣) البيان : ٥١ .
٤) البيان : ٥٢ .
٥) البيان : ٥٢ .
٦) البيان : ٥٥ .
٧) البيان : ٥٥ .
٨) البيان : ٣٧ .
٩) البيان : ٤٦ .

/٠٠ ...

وحين يدعي النبي الرسالة على الله تعالى ، ويخبر عنه وعن وحيه ، يصبح سفيرا بينه وبين خلقه ـ لذلك يقتضي بظهور الآيات على يديه ليبين صدقه من ادعاء غيره وكذبه [١] ،

ويرى الباقلاني ان الرسول يكون اما : ١ ـ مجددا لشريعة وناسخا لما قبلها ، ٢ ـ او مقرا لبعضها وناسخا لبعض ـ ٣ ـ واما ان يكون مرسلا ارسله الله بالدعاء الى شريعة من قبله ، يحض العباد على فعلها ويرغبهم في التمسك بها من غير ان يكون مستأنفا لشريعة تخالف ما سلف ، ـ ٤ ـ او مرسلا بفرض التوحيد والنبوة فقط من غير ان يلزم بفرض العبادات الشرعية . كالصلاة والاحكام والعقود ، والاقضية ـ ٥ ـ او يكون داعيا الى شريعة غيره من الرسل المعاصرين له كداود وسليمان ، وموسى وهارون ، ولوط وابراهيم ـ ٦ ـ او داعيا الى شريعته بعد موت النبي المتقدم وانقراضه [٢] .

ويرفض الباقلاني دعوة القدرية [٣] " في ان يكون المكلف مستغنيا بعقله عن رسول يدعو الى التوحيد ، لاعتقاده ان فرض التوحيد والنبوة بمنزلة فرض الصيام والحج ، بينما تعتقد القدرية ان ليس من ضرورة في ارسال الرسل لفرض التوحيد والنبوة فقط ، اذا لم يفرض الرسول ايضا الصلاة والصيام والحج على المكلفين ويلزمهم بالعبادات الشرعية ويكلفهم بها . فالعقل عند هؤلاء القدرية يستدل على الله من ذاته بلا واسطة ، بينما في اعتقاد الباقلاني لا يجوز ان تلزم عبادة وتترتب فريضة ويلزم تكليف من جهة العقل ، بل ذلك كله ثابت من جهة السمع المحض ، لان كل الاحكام الثابتة لافعال المكلفين ثابتة من جهة الشرع وليست من جهة العقل ، وقد ورد هذا من قبل الله عز وجل ، بلا واسطة ولا ترجمان بالمخاطبة رأسا كما خاطب محمد وموسى عليهما السلام وكما يخاطب الملائكة [٤] ، فالانبياء " سواء ارسلوا بفرض التوحيد والنبوة فقط ، او جاوزوا بذلك وبتقرير الفرائض والعبادات ، كل هذا صحيح على ما قدمناه " [٥] . يقول الله تعالى ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ [٦] ، وقال تعالى ﴿ كلما القي فيها فوج سألهم خزنتها الم يأتكم نذير ﴾ [٧] .

---

١) البيان : ٣٧ ـ ٣٩ .
٢) البيان : ٣٩ .
٣) البيان : ٤٠ .
٤) البيان : ٤١ .
٥) البيان : ٤٤ .
٦) سورة الاسراء : ١٥ ، البيان : ٤١ .
٧) سورة الملك : ٨ ، البيان : ٤١ .

٠٠/٠٠٠

د) المعجز والحيل والشعوذة :

يتساءل الباقلاني كيف يتم لنا تصديق الرسل وفي العالم عدد من المشعوذين والمحتالين كالحلاج [(١)] ، وابن هلال [(٢)] ، وكيف يتم لنا تمييز ظهور المعجز على ايدى الرسل دون هؤلاء ، ويجيب الباقلاني عن هذا التساؤل فيقول [(٣)] ، ان المعجز لا يتم بحيلة محتال ، وان اختيار المعجزات لا يقوم بها الا الصادق من الرسل ، فيحيي الميت ويبرئ الاكمة والابرص ، وهذه الافعال لا تتم من الرسول الا بخرق العادة من قدرة يخلقها الله فيه ، فلو كان يصح اكتساب العباد لهذه المعجزات بضرب من الحيلة ، لكان اهل الصنعة اقدر على الفعل من غيرهم ، فأفلاطون وسقراط وبقراط اقدر في الحذق والمهارة ، وفي اختراع ضروب من الحيل [(٤)] .

والحيلة في تعريف الباقلاني " تتم في فعل ما يمكن دخوله تحت قدر العباد دون ما يستحيل " [(٥)] ، فيخلق المحتال لنفسه سمعا وبصرا . اما المعجز " فيمتنع تمام وقوعه من العباد بحيلة من الحيل " [(٦)] .

ويعترف الباقلاني بوجود السحر [(٧)] ، اذ ليس من سبيل لانكاره وابطاله ، ويرى ان الشاهد المؤكد لوجوده هو القرآن الذى خبر به . فالسحر عنده في انواع منها :

١ ـ التخييل والتمثيل [(٨)] ، بالآلات المعروفة ، كما فعل سحرة فرعون في تخييل الحيات

---

١) هو الحسين بن منصور ابو علي البغدادى المتصوف المشهور الذى قتل لتطرفه في تصوفه سنة ٣٠٩ ببغداد ، انظر تاريخ بغداد ٨ : ١١١ ـ ١٤١ .

٢) هو ابو نصر احمد بن هلال بن وصيف له افعال عجيبة " هكذا عرفه الاب مكارثي في فصل " تعليقات اضافية " من كتاب البيان للباقلاني صفحة ١١٤ ناقلا ترجمته عن طبعة فليكل صفحة ٣١٠ .

٣) البيان : ٥٦ .

٤) البيان : ٥٩ .

٥) البيان : ٥٨ .

٦) البيان : ٥٨ .

٧) البيان : ٨٤ .

٨) البيان : ٧٧ .

.../..

بانها تسعى ، قال تعالى (يخيل اليه من سحرهم انها تسعى) [١] ٠ ٢ ـ ومنها : الحيل والشعوذة فهي تجرى بآلة للسحرة لطيفة [٢] او بمادة الزئبق فيأتي المشعوذ ويخفي حية ، ويخرج من جوفها اخرى بخفة ودربة ، او يقاتل ويخفي الميت ويوهم ان الميت هو الذي صار حيا ٠ ٣ ـ ونوع من السحر ورد في القرآن يختلف عن النوعين السابقين لشدة ضرره ، فقد افتى بعض الائمة بقتل عامله لا باستتابه ٠ وذلك بعد ان يعترف بعمل سحره في المسحور [٣] ٠

فالباقلاني يعتبر ان السحر موجود على الحقيقة كقوله تعالى (واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ٠٠٠ وما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر) [٤] ٠ فان كان السحر موجودا كما يعتقد الباقلاني فهو يضر بالمسحور باذن الله ، ولا يعني باذنه تعالى اى بامره ـ وانما يعني بحكمه وقضائه [٥] ٠ وقد حصل الاختلاف في معنى " وما انزل على الملكين " او على الملكين ، وكذلك الاختلاف فيمن هو الساحر ، املك هو ؟ ام بشر [٦] ٠ والباقلاني لا يستبعد ان يكون ملكان يعلمان السحر للناس " ويحذرانهم من عمله وينهيانهم عن فعله " [٧] ، وقال تعالى (وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر) [٨] ٠ ويرى ان في تعليم السحر للناس من الملكين لربما يكون من حكم الله تعالى لوجهين [٩] ، احدهما ربما اراد تغليظ محنة المكلف الذى يعلم السحر ولا يعمله فيثاب في الاخرة ، والوجه الثاني ان يكون المكلف يعلم السحر ويعمله فيعاقب ، وهذا المعنى في التكليف في جواز نفع الله تعالى لبعض خلقه والاضرار لبعضهم انما هي فكرة توسع بها شيوخ الباقلاني ـ الاشاعرة ـ في كتب لهم في التعديل والتجوير في اصول الديانات ، [١٠] ٠

ويرد الباقلاني على القدرية التي تنفي ان يكون القديم تعالى يفعل الضرر في العباد ، فهو تعالى مريد لافعاله قد تنفع خلقه او تضرهم ، فلا مانع من ان ينزل ملكين يعلمان السحر للخلق

---

١) سورة طه : ٦٦ ، البيان : ٧٧ ٠
٢) البيان : ٧٧ ٠
٣) البيان : ٧٨ ٠
٤) سورة البقرة : ١٠٢ ، البيان : ٧٩ ٠
٥) البيان : ٨٠ ٠
٦) البيان : ٨٠ ٠
٧) البيان : ٨٠ ٠
٨) سورة البقرة : ١٠٢ ٠
٩) البيان : ٨١ ٠
١٠) البيان : ٨٢ ٠

٠٠/٠٠٠

خلافا للقدرية القائلة بان الخير من الله والضر من الانسان يضر نفسه بنفسه ، فهو يجتمع مع الاشعرية ان الخير والشر كله من الله تعالى [١] .

لقد اثبت الباقلاني في كتابي التمهيد وشرح اللمع [٢] ، فكرة ان المحدث لا يمكن ان يكون فاعلا ، لانه محدث من آخر ، والاخير هذا هو الله تعالى ، فمن يكون محدثا لا يمكن ان يأتي بافعال دائمة لانها الى زوال وهي افعال عرضية ـ وهذا ما سبق الحديث عنه ـ واذا اثبت الباقلاني ذلك استنتج ان الذي يفعله الساحر "انما هي مقدورات له توجد في نفسه ومحل قدرته ، وقد يكون كلام يحفظه ـ وكون يفعلها في جوارحه ، واعراض لا تتعداه" [٣] فيفعل الله تعالى السقم في الصحيح ، والموت في المسحور وذلك عندما ينطق الساحر بما يحفظه فيظن انه قتل بسحره وهذا باطل لان المحدث ، سواء كان بشرا ، او ملكا او ساحرا او شيطانا لا يستطيع ان يفعل في غيره شيئا لان افعاله لا تتعدى محل قدرته ، فالافعال من الله وتحصل بجري العادة عندما يفعل الساحر بنفسه الحالات التي يظهر بها السحر ، من اقوال وافعال ، ﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من احد باذن الله﴾ [٤] ، [٥] ، لذلك لا يستطيع الساحر ان يحيي الميت ، ويقلب الجماد حيوانا ويبرأ الاكمة والابرص ، اما صعوده على خيط ، وطيرانه في الفضاء فأيضا يكون من فعل الله سبحانه ، يفعله عند السحر ، كما يفعل في ان يميت المسحور او يسقمه ، فالسحر في رأي الباقلاني ليس بشيء غير ما هو تخييل وايهام لكون الشيء على غير ما هو به بضرب من الخفة والشعوذة [٦] .

ويرى الباقلاني ان من حق المعجز ان لا يكون معجزا اذا اشترك فيه الساحر والنبي ، فالمعجز من فعل الله في النبي يتحدى به فلا احد يأتي بمثله واما الساحر المتنبيء اذا فعل فعلا من عند الله فقد يأتي من يعارضه فعله ، او قد ينسيه الله طريقة صنع السحر فيبطل عمله [٧] . "او لم يفعل سبحانه عند قوله ، وما يفعله في نفسه شيئا في المسحور من موت ، او سقم او بغض ، ولم يخلق

---

١) البيان : ٨٢ .
٢) البيان : ٨٨ .
٣) البيان : ٨٨ .
٤) سورة البقرة : ١٠٢ .
٥) البيان : ٨٩ .
٦) البيان : ٩١ ـ ٩٢ .
٧) البيان : ٩٧ ، ١٠٥ .

../...

فيه الصعود الى جهة السماء والقدرة على الدخول في بقرة ، فاذا منعه هذه الاسباب بطل سحره وبان الفرق بين النبي صلى الله عليه وسلم وبينه "(١) .

ثم ان الرسول بدل ان يكذبه الله ، فقد يأتي على يديه ما يبين صدق فــلا ينسيه عمله بل يؤيده . وهناك تمييز آخر يضعه الباقلاني بين السحر والمعجز ، وهو ان ابواب السحر معلومة عند السحرة ، وعند اهل بابل بخاصة ، فاذا ساحر تحدى ، وجد من يقوم بفعله هذا سحرة كثيرون .

والباقلاني يعتمد في ذلك على ان ليس من المستبعد ان تكون اية اعظم من غيرها ، وان هذه الآيات قد تصبح شائعة وعادية ، وقد يدا يزيد الباقلاني ان حجر المغنطيس والطلسمات ، كانتا ايتين لنبي من الانبياء فصار حفظة الطلسمات بعد ذلك كحفظة القرآن (٢) ، ويرفض الباقلاني ان يكون الانبياء والرسل ملائكة تصوروا في صور بشر (٣) وفعلوا افعالا ، وقالوا اقوالا هي عادة لهم ، اذ الله تعالى في نظره لا يرضى ان يكون الملائكة رسلا ، لانه خلقهم ملائكة ، فهو يرفع عنهم قدرته التي اوجبت المعجز ، وبذلك يتغير حالهم ، كما لا يرضى ان يكون الملائكة افضل من الانبياء ، لانه قد عصمهم من ادعاء هذه الدعوة ، وكذلك عصمهم عن ادعاء الربوبية (٤) ، فالله تعالى وصفهم في النهاية بالطاعة والمعرفة ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ (٥) .

والشياطين كذلك يقدرون على اعمال وافعال لا يقدر بشر عليها ، فيتمثل الواحد منهم بصورة بشر ، وذلك يتأيد من الله تعالى ، الذي اذا اراد استطاع ان يمنعه من التصور في صورة بشر فيرفع قدرته عن فعل الشيطان جملة ، او ان يقدر معه الفا آخرين يفعلون مثل فعله ويكذبونه (٦) .

نستنتج اذن ان من اهم المسائل التي اثيرت من الباقلاني في كتاب البيان لاثبات المعجز مسألتان ـ ١ ـ مسألة القدرة الالهية القادرة على الخلق والابداع ، تقابلها القدرة الانسانية

---

١) البيان : ٩٥ .
٢) البيان : ١٠١ .
٣) البيان : ١٠٢ .
٤) البيان : ١٠٣ .
٥) سورة الانبياء : ٢٠ ، البيان : ١٠٣ .
٦) البيان : ١٠٥ .

.../..

المكتسبة من الله تعالى ـ ٢ ـ ومسألة الايمان بوجود الانبياء والرسل وظهور المعجز على ايديهم واثباته بعد تحدى الناس لهم ، وذلك يجرى العادة .

اما بالنسبة للمسألة الاولى فان الباقلاني يرى ان القدرة الالهية ينفرد بها الله وحده دون الخلق ، فيخلق ويكون ما يشاء ، او قد تخرج العبد حين يمنحها الله تعالى تحت قدرته فيعتقدها خاصة له كما فعل القدرية . الا ان افعال العباد محدثة وغير ناتجة عنهم لانهم محدثون مثلها ، والعرض لا يخلق العرض ، وبذلك ابطل القول ـ بالتولد ـ وباستحالة دون المخلوق فاعلا في غير محل قدرته (١) فاثار بالتالي مسألة التكليف وامتحان العبد ورد بها على القدرية .

وبرهان الباقلاني للقدرة الالهية برهان اظهر فيه "المعجز" الذى خصص له معظم كتاب البيان فاثار مسألة الايمان بدعوة الانبياء والرسل لاطاعة الخالق ، فتناول بالتالي الكلام في المعجز عامة وميزه عن السحر والحيل والشعوذة . ورفض دعوة القدرية في ان لا يجوز بعث نبي الى فرض التوحيد واعتقاده فقط ، فمسألة الايمان بوجود الانبياء والرسل مسألة اخرى اثارها الباقلاني في هذا الكتاب ورد على القدرية بقوله تعالى ﴿وما كنا معذبين ، حتى نبعث رسولا﴾ (٢) اذ قد يدعو الرسول الى آله واحد دون ان يلزم العباد بالصلاة والصيام وغير ذلك من الاحكام والعقود الشرعية .

ولربما كان فكر الباقلاني في هذا الكتاب تمهيدا لكتاب آخر الفه فيما بعد وهو كتاب اعجاز القرآن (٣) ، فكأن الكتابين كتاب واحد في جزأين : الاول يتناول الكلام في المعجز وظهوره بقدرة الله تعالى على الانبياء والرسل ، ثم تمييز المعجز عن السحر والشعوذة ، والثاني يتناول تحديدا : الكلام في اعجاز القرآن بخاصة من حيث ظهوره على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو النبي الامي ، ومن حيث اخباره بالغيب باسلوب فاق اساليب العرب كافة ، فكان القرآن دليلا معجزا على صدق دعوته ، وعلى كونه مرسلا من الله تعالى .

---

١) البيان : ٦٥ .
٢) سورة الاسراء : ١٥ ، البيان : ٤١ .
٣) انظر مقدمة الآب مكارتي لكتاب البيان للباقلاني صفحة ١٢ ، ومقدمة احمد صقر لكتاب اعجاز القرآن للباقلاني صفحة ٩٤ .

.../..

الفصـــــــل الثانـــــــــي

حول كتاب اعجـــــاز القـــــــرآن

====

ثانيا : حول اعجاز القــــرآن :

بدأ البحث في اعجاز القرآن في حدود القرن الثالث الهجري ، وكان اقدم كتاب ظهرت فيه كلمة "معجز" لمحمد زيد الواسطي المتوفى سنة ٣٠٦ هجري (١) ، ثم توالت البحوث بعد ذلك (٢) ، فكانت حول البناء اللغوي للقرآن ، وحول ترتيبه الدقيق لما يحوي من وجــــوه الاستعارة ، والصور البلاغية المختلفة ، ثم ان بعد القرن الثامن الهجري اصبح تعبيـــر الاعجاز مرادفا لعلم البيان (٣) .

ومن الاسباب التي دعت الى عدم الخوض في اعجاز القرآن قبل القرن الثالث الهجري ، وعدم نقد اسلوب القرآن هو القول "بالصرفه" — وهذه فكرة اعتزالية — فقد اعتمد البعـــض على ان القرآن الكريم معجز لصرف الهمم عن معارضته . فالخطابي — وهو اديب لغوي محدث يذكر في رسالته "بيان اعجاز القرآن" "ان النبي صلى الله عليه وسلم بقي يطالب قومه ليأتـــوا بمثل القرآن "مدة عشرين سنة مظهرا لهم النكير ، زاريا على اديانهم مسفها آراءهـــم واحلامهم ، حتى نابذوه ، وناصبوه الحرب ... وقد كان فيهم الخطباء المصاقع ، والشعـــراء المفلقون" (٤) . وحين حصل التحدي وظهر عجز العرب عن الاتيان بمثل القرآن ، اذعنـــوا واعتقدوا "ان الذي سمعوه فائق للقوى البشرية" كما يقول عبد القاهر الجرجاني فـــي رسالته (٥) الشافية في الاعجاز" .

---

١) مقال ج . أ . غرونيبوم — مادة اعجاز ٣ : ١٠٤٤ في الموسوعة الاسلامية النسخة الفرنسيـــة طبعة ١٩٦٠ .

٢) لعلي بن عيسى الرماني المتوفى ٣٨٦ ، ولمحمد بن ابراهيم الخطابي البستي المتوفـــى ٣٨٨ ، ثم بحث للباقلاني المتوفى ٤٠٣ ، وقد اثر بحثه هذا على من بعده من اللاحقيـــن مثل عبد القاهر الجرجاني المتوفى ٤٧١ ، وفخر الدين الرازي المتوفى ٦٠٦ (انظر الموسوعـــة الاسلامية : ١٠٤٤) .

٣) الموسوعة الاسلامية : ١٠٤٦ .

٤) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ١٩ .

٥) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ١٠٧ .

.../..

وقد تطور البحث في المعجز فيما بعد فأنتج للنقد الادبي والبلاغة الشيء الكثير وكان التحليل البنيوي [١] ، الذي اجراه الباقلاني على الآية القرآنية في كتابه اعجاز القرآن [٢] جزءا من بحث حول اسلوب القرآن ووجوه البلاغة فيه ، ثم بيان اسباب اعجازه وظهوره على النبي الامي .

وقد اتبعت التقسيم التالي في بنية كتاب اعجاز القرآن للباقلاني فرأيته يقع في بابين : الباب الاول يتضمن ثلاثة فصول ، في الفصل الاول [٣] ، يعتمد الباقلاني على الدلائل التي تشير الى اعجاز القرآن وبالتالي الى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي الفصل الثاني [٤] ، يستعرض الباقلاني مقارنة بناء الجملة في اللغة العربية ، وبناء الآية في السورة القرآنية ، ويوضح من خلال ذلك دور كل من الحروف في اللغة العربية سواء كانت مفردة او مجموعة ، وذلك لتمييز نظم القرآن وعجيب تأليفه . اما في الفصل الثالث [٥] يحاول الباقلاني ان يشرح الآية القرآنية لشمولها على كلمة او كلمات والكلمة في مفهومه هي وحدة تعبيرية مؤلفة ، في مفهومها ومعناها . اما الباب الثاني من الكتاب فيحوي فصلين : في الفصل الاول [٦] ، يقيم الباقلاني موازنة بين اسلوب القرآن وشعر اشعر العرب ، وابلغ بلغائهم من كلام منثور ليظهر اعجاز القرآن وما يتضمن من البديع . ويأتي بابيات شعرية من قصائد مختلفة اهمها واطولها استشهادا قصيدة امرىء القيس " قفانبك " [٧] ، وقصيدة البحتري " اهلا بذلكم الخيال المقبل " [٨] ، والباقلاني باستعراضه هذا ينفي الشعر عن القرآن الكريم ، وينفي ان يكون كلامه يشبه كلام الخطب والرسائل ، ويشبه الكلام المنثور

---

١) بحث حول ترتيب الآية القرآنية بعنوان " طريقة الباقلاني في اظهار اعجاز القرآن الكريم " وقد اجرته مؤخرا د . انجليكا نويفرت ، وهو يطبع الآن في كتاب " دراسات عربية واسلامية " تحرير الدكتورة وداد القاضي . وسيصدر عن الجامعة الاميركية في بيروت هذا العام – وبحث حول اعجاز القرآن وتطوره ثم اثره في البلاغة العربية قام به الدكتور عمر الملا حويش بغداد ١٩٧٢ ، وبحث في الاعجاز البياني للقرآن ، قامت به الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء) دار المعارف بمصر ١٩٧١ .
٢) اعجاز القرآن للباقلاني ، تحقيق احمد صقر ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣ .
٣) اعجاز القرآن : ٨ – ٣٥ ، ٢٨٨ – ٣٠٥ .
٤) اعجاز القرآن : ٣٦ – ٦٥ ، ١١٨ – ١٢٠ .
٥) اعجاز القرآن : ١٨٦ – ٢١٠ .
٦) اعجاز القرآن : ١٢٩ – ١٨٤ ، ٢١١ – ٢٤٨ .
٧) اعجاز القرآن : ١٥٦ .
٨) اعجاز القرآن : ٢١٩ .

.../..

فالقرآن معجز لاختلاف اسلوبه عنها جميعها . اما في الفصل الثاني (١) ، فقد اقام الباقلاني موازنة " لاوجه " البلاغة في القرآن وشعر العرب ، وكلام فصحائهم . ولسوف آتي بالكلام في كل فصل على حدى ، فأبدأ بالمسألة الاكثر اهمية وبروزا في هذا الكتاب ، وهي مسألة معجزة القرآن الالهيـــة .

أ) القرآن معجزة آلهيـــة :

يعتبر الباقلاني ان القرآن الكريم كان معجزا بقدرة الله تعالى ، التي تحدت قدرة العباد فلم يأتوا بمثله ، ويقول في مقدمة (٢) كتاب الاعجاز ان من قائل يقول ان القرآن " سحـــر " وقائل يقول " انه شعر " وآخر " انه من اساطير الاولين " وقائلون يقولون " لو نشأ لقلنـــا مثل هذا " . ويذكر ان الجاحظ صنف كتابا (٣) في موضوع الاعجاز ، لم يزد فيه على مـــا قال المتكلمون قبله شيئا . وقد يقصد من المتكلمين علي بن عيسى الرماني – المعتزلي – لانه في مكان آخر من هذا الكتاب يقول : " ان من قدر ان البلاغة في عشرة اوجه من الكلام ، لا يعرف من البلاغة الا القليل . ولا يفطن منها الا لليسير " (٤) وكان الرماني قد اشار في رسالة الى ان البلاغة في عشرة وجوه فقط (٥) .

ويعتقد الباقلاني ان للقرآن اسلوب خاص به ، يختلف عن اساليب الكلام المعتاد ، فالكلام البديع المنظوم يتقيد بطرق كثيرة ، منها ما ينقسم الى اعاريض من الشعر على اختلاف انواعــه – او الى انواع من الكلام الموزون غير المقفى – او الى اصناف من الكلام المعدل المسجع او الـــى كلام معدل موزون غير مسجع – وكلام يرسل ارسالا ، الا ان القرآن مباين لهذه الطرق جميعهـــا

١) اعجاز القرآن : ٦٦ – ١٢٨ ، ٢٦٢ – ٢٨٢ .
٢) اعجاز القرآن : ٤ .
٣) اعجاز القرآن : ٦ والجاحظ اشهر من ان يعرف (١٥٠ – ٢٥٥ هـ) .
٤) اعجاز القرآن : ٣٠٠ .
٥) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ٦٩ .

.../..

فهو ليس من باب السجع ولا من قبيل الشعر [١] ، فالقرآن فيه من الفصاحة والغرابة ، والتصرف البديع والفوائد الغزيرة الشيء الكثير [٢] ، قال الله تعالى ﴿الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها ، مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله﴾ [٣] .

ومن عجيب نظام القرآن يقول الباقلاني انه لا يتفاوت في اسلوبه ولا يتباين ، وقد رأينا الاعجاز في الايات الطويلة والقصيرة ، ويأتي الباقلاني بقوله في عرض حجته ان من الشعراء من يجود في نوع واحد من الشعر ، ومن الناس من يجود في الكلام المرسل بينما يقصر في التعبير ببيت واحد من الشعر ، اما القرآن فهو على اختلاف فنونه ترى المختلف فيه كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب فالبحتري مثلا ، اتفق عليه اهل اللغة وقالوا انه يقصر في الخروج من النسيب الى المديح [٤] ، اما نظام القرآن فهو بليغ بحيث خرج عن عادة كلام الجن ، وعادة كلام الانس ﴿قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ [٥] ، فأسلوب القرآن يتراوح بين البسط والاقتصار والجمع والتفريق ، والاستعارة والتصريح ، والتجوز والتحقيق [٦] ، فهو سهل وممتنع ، يبتعد عن الوحشي من الكلام ، وعن الغريب من اللفظ وعن الصنعة المتكلفة [٧] .

والقرآن ارسله الله تعالى ﴿كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون﴾ [٨] ، وهو آية من آيات الله ، تدل على قدرة الخالق بخرق العادة وظهوره معجزا [٩] ، وقد قسم الباقلاني الايات الالهية — ويعني بها المعجزات — اما مبشرة وتكون دليلا في دار التكليف على قدرته تعالى وعلى نبوة من ظهرت على يده ، واما تكون موعدة منذرة ، فاذا حصلت ارتفع التكليف ووجب الهلاك ﴿فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا﴾ [١٠] .

---

١) اعجاز القرآن : ٣٦ .
٢) اعجاز القرآن : ٣٦ .
٣) سورة الزمر : ٢٣ ، اعجاز القرآن : ٣٦ .
٤) اعجاز القرآن : ٣٨ .
٥) سورة الاسراء : ٨٨ ، اعجاز القرآن : ٣٨ .
٦) اعجاز القرآن : ٤٢ .
٧) اعجاز القرآن : ٤٥ .
٨) سورة فصلت : ٣ ، اعجاز القرآن : ١٢ .
٩) اعجاز القرآن : ١١ .
١٠) سورة غافر : ٨٥ ، اعجاز القرآن : ١١ .

٠٠٠/٠٠

ويعني الباقلاني بكتاب الله : القرآن المتلو والمرسوم في المصاحف جاء به النبي ، وتـــلاه على من في عصره ٢٣ سنة وتحداهم ان يأتوا بمثله فعجزوا [(١)] ، وقد كانوا على " ما هم عليـــه ، من الذرابة والسلاقة والمعرفة بوجوه الفصاحة " [(٢)] فحين شعوره لم "نرهم احتجوا عليه بكـــلام سابق ، وخطبة متقدمة ، ورسالة سالفة ، ونظام بديع " [(٣)] ، ولو فعلوا لكان نقل الينا بالتواتـــر كما نقل الينا شعر الجاهلية وكلام الفصحاء والحكماء من العرب .

ويعتقد الباقلاني ان التحدي لم يحصل حين حصل لاثبات اعجاز القرآن وحسب بل هو ثابت انما حصل التحدي لاقامة الحجة واظهار وجه البرهان على ان القرآن معجزا للكافة . ومما يؤكـــد هذه الفكرة ، ان النبي دعا الافراد الى الاسلام ، وقد احتج عليهم بالقرآن ، فهو لم يلزمهـــم في تصديق ما جاء به من دعوة ولم يجبرهم على ان يتبعوه تقليدا له ، فالسابقون الاولون فـــي الاسلام لم يقلدوا النبي ، بل دخلوا في دينه على بصيرة ووعي [(٤)] .

ويعتمد الباقلاني على طريقة الاستدلال الذاتي والاختيار النفسي لمعرفة اماكن الاعجاز في القرآن فالمتناهي في الفصاحة حين سمع كلام القرآن عرفه معجزا ، لانه عرف من حال نفسه عجزه عنه وبالتالي عرف حال غيره العاجز ، ثم ان استقرار العادة دليل آخر للفصيح الذي يعلم عجـــز نفسه ، ولا يعلم عجز غيره عن نظم القرآن " اذ ليس في العادة مثل للقران ، يجوز ان يعلـــم قدرة احد من البلغاء عليه . فاذا لم يكن لذلك مثل في العادة وعرف هذا الناظر ، جميـــع اساليب الكلام وانواع الخطاب ووجد القرآن مباينا لها علم خروجه عن العادة " [(٥)] . فاخراج موسى ليده بيضاء من جيبه عمل خرج عن العادات [(٦)] .

والمعجز في اعتقاد الباقلاني لا يكون بالقليل المعتاد ، فليس كل من ينظم ربع بيت مـــن الشعر يصبح شاعرا . ولا كل من ينطق كلمة فصيحة يصبح قادرا على نظم الخطب والرسائل [(٧)] ، وقد اظهر الباقلاني فكرته هذه كاملة في كتاب البيان [(٨)] ـ وهو الكتاب الذي جعلناه جزءا اولا

---

١) اعجاز القرآن : ١٦ .
٢) اعجاز القرآن : ٢٢ .
٣) اعجاز القرآن : ٢٤ .
٤) اعجاز القرآن : ٢٥ .
٥) اعجاز القرآن : ٢٦ .
٦) اعجاز القرآن : ٢٦ .
٧) اعجاز القرآن : ٢٩ .
٨) البيان : ٢٣ ـ ٢٩ .

.../..

لهذا الكتاب فالاعجاز في نظم القرآن وبلاغته ، ولو لم يكن القرآن معجزا من جهة نظمه الممتنع لكان ابلغ في الاعجوبة وافصح .

ويرد الباقلاني على القائلين " بالصرفة " ـ وهي فكرة اعتزالية ـ اريد بها صرف الاذهان عن الاشتغال باسلوب القرآن واظهاره معجزا ، لاعتقادهم انه معجز من غير برهان عملي مادام العقل هو الدليل ، فعاد الباقلاني الى البرهان العقلي يستعمله حجة مقابلة يرد بها على المعتزلة فيقول : لو كانت هذه الفكرة مقبولة لكان القرآن مسلم باعجازه لعجيب وجوده . ولكنا نستغني عن انزاله على النظم البديع الذي نراه ، فاهل الجاهلية لم يكونوا قبلهم " مصروفين عما كان يعدل به من الفصاحة ... "(١) ، " ولما لم يوجد في كلام من قبله مثله علم ان ما ادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان "(٢) ، ويفسر الباقلاني الصرفة " بالمنع " فاذا قلنا " بالصرفة " لم يعد كلام القرآن معجزا . فلم يعد يتضمن فضيلة على غيره (٣) ، فيصبح المنع هو المعجز وهذا ما اراد بطلانه .

ثم يأتي الباقلاني بمقارنة بين القران والكتب الاخرى سواء كانت تحدث عن اخبار الانبياء او كانت لفلاسفة ومؤلفين فهي جميعها لا تضاهي القرآن . فكلام التوراة والانجيل ، والصحف الاولى ليس معجزا من ناحية النظم والتأليف وانما هو معجز فيما يتضمن من الاخبار عن الغيوب (٤) واما كتاب " ماني " وكتاب " زرد شت " ـ وهما من اهل التثنية ـ ليسا بمعجزين ، ففي كتاب ماني ضروب من الشعوذة والنيرنجات وليس فيه حكما جديدة (٥) بل حكمة متداولة على الالسنة وهي شائعة بين الامم . ثم ان ابن المقفع بعد ان اشتغل بكتاب عارض فيه القرآن عاد ومزق ما جمع من هذا الكتاب ، واما كتابه " الدرة " في الحكم فهو منسوخ من كتاب بزرجمهر في الحكمة ـ هذا على حد رأي الباقلاني واما المؤلفات في الجزء والطفرة فهي ليست بمستوى القرآن الابدع منها والاغرب (٦) ، ويلجأ الباقلاني غالبا في اثبات حجته الى الآيات القرآنية ليؤيد فكرته التي

---

١) اعجاز القرآن : ٢٩ .
٢) اعجاز القرآن : ٢٩ .
٣) اعجاز القرآن : ٣٠ .
٤) اعجاز القرآن : ٣١ .
٥) اعجاز القرآن : ٣٢ .
٦) اعجاز القرآن : ٣٠ .

.../..

يثبت فيها تفوق القرآن على كل مؤلف ﴿انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم ادبر واستكبر ، فقال ان هذا الا سحر يؤثر ، ان هذا الا قول البشر﴾ (١) .

وهكذا يستنتج الباقلاني ان اندهاش العرب عند ظهور القرآن دليل على عجزهم الذى ظهر بعد طول تقريع وتحد من النبي صلى الله عليه وسلم (٢) ، فالله تعالى وفقهم الى نظم الشعر فأجادوا ووضعوا الاوزان والقوافي في حد محدود ، لعلمه انه سيجعل القرآن معجزا ، وهو قادر على ان ينظم مثله بهيئة اخرى تزيد في الفصاحة ، ويكون ابلغ وابدع ، اما العباد فهم غير قادرين لان قدرتهم متناهية محدودة (٣) ، فكذبوا رسله ﴿كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم ، وهمت كل امة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق﴾ (٤) . فماذا كان مصيرهم ﴿فأخذتهم فكيف كان عقاب﴾ (٥) فالباقلاني يعتقد ان الله اراد لمن كذبوا العذاب ﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا انهم اصحاب النار﴾ (٦) ، وانه كافأ المؤمنين فعظم شأنهم (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم) (٧) .

لماذا القرآن معجزة الهية :

ان القرآن اتى بمشيئة الله تعالى ﴿بلسان عربي مبين﴾ (٨) . وقد ابدى الباقلاني اعجابه بنظمه الذى فاق كل نظام فعجز عنه اهل الفصاحة من العرب كما عجز عنه اهل العجم والترك ، فالاعجمي لم يكن يعلم ان القرآن معجزا الا بعد ان علم عجز العرب عنه (٩) . وقد ظهر القرآن المعجز على النبي الامي الذى لم يكن يحسن القراءة والكتابة قال تعالى ﴿وما كنت تتلو من قبله ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون﴾ (١٠) ، فذكر قصص الانبياء والملوك ، وحدث باخبار الغيوب ﴿وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست﴾ (١١) فالله تعالى ﴿ارسل رسوله بالهدى ودين

---

١) ١) سورة المدثر : ١٨ ـ ٢٥ ، اعجاز القرآن : ٣٠ .
٢) اعجاز القرآن : ٢٨٨ ـ ٢٨٩ .
٣) اعجاز القرآن : ٢٨٨ .
٤) سورة غافر : ٥ ، اعجاز القرآن : ١٩٧ .
٥) سورة غافر : ٥ ، اعجاز القرآن : ١٩٨ .
٦) سورة غافر : ٦ ، اعجاز القرآن : ١٩٧ .
٧) سورة غافر : ٧ ، اعجاز القرآن : ١٩٨ .
٨) سورة الشعراء : ١٩٥ ، اعجاز القرآن : ٣١ ، ١٦٦ .
٩) اعجاز القرآن : ٢٥ .
١٠) سورة العنكبوت : ٤٨ ، اعجاز القرآن : ٣٤ .
١١) سورة الانعام : ١٠٥ ، اعجاز القرآن : ٣٤ .

٠٠٠/٠٠

الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾(١) ، ويأتي الباقلاني بمثل صادق في الاخبار عن الغيوب يقول، وقد انتصر المسلمون على الكافرين وصدق الله وعده فحشرهم وكسرهم ﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد ﴾(٢) ، وحق النصر . وفتحوا حتى آخر ايام عمر – الخليفة الراشد الثاني – بلاد ما بين البحرين فقضوا على ملوك فارس وبلدا ارمينية ، وباب الابواب ، ودخلوا الشام ، والاردن ، وفلسطين ، وفسطاط مصر (٣) .

ب) نقد المبنى :

١) بين الابيات الشعرية والايات القرآنية :

ينفي الباقلاني الشعر عن القرآن بناء على تحديد بعض صناع العربية من ان الشعر ، ما كان اكثر من بيت واقل الشعر بيتان فصاعدا ، والبيت الواحد لا يكون شعرا (٤) ويأتي على لسان بعضهم الآخر في تحديد الشعر باربعة ابيات فصاعدا تكون على وزن واحد ، وقافية واحدة (٥) ، واما البيتان المختلفان في الوزن والمتفقان في القافية او العكس ليسا شعرا ، ويقول الباقلاني ان صناع العربية لم يعتبروا الرجز شعرا اصلا ، فكيف اذا كانت ابيات الشعر مشطورة او منهوكة (٦) ، ثم انه ليس كل من قال جملة موزونة يكون شاعرا ، ويكون كلامه مكتسب صفة الشعر ، لان الشعر لا يحصل الا من قاصد اليه (٧) ، ومتى يختلف الروي يخرج عن ان يكون شعرا ، كما انه ليس كل من يأتي بكلام بليغ منمق منظوم يعتبر شعرا (٨) ، فالعامي قد يقول لصاحبه "اغلق الباب وائتني بالطعام" ، وهذا النوع من البرهان لا ينطبق على القرآن ، كما ان تعريف الشعر لا ينطبق عليه ، فمثل هذا البرهان قياسي ، وينطبق على الشعر والكلمات الموزونة بينما القرآن نص الهي والنبي صلى الله عليه وسلم لا يعرف الشعر وقد نص الله تعالى على ذلك بقوله ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾(٩) ، وان وردت بعض الايات التي قد تشتبه على البعض فيقولون : انها على نسق الابيات الشعرية ، كما فعل ابو نواس وغيره . وقد حاولوا ادخالها في قصائدهم . الا انهم كثيرا ما زادوا او انقصوا فيها . قال تعالى ﴿ارأيت الذي يكذب بالدين ، فذلك الذي يدع اليتيم ﴾(١٠) ، ادخلها ابو نواس في

---

١) سورة التوبة : ٣٣ ، اعجاز القرآن : ٣٣ .
٢) سورة آل عمران : ١٢ ، اعجاز القرآن : ٣٤ .
٣) اعجاز القرآن : ٣٣ .
٤) اعجاز القرآن : ٥٣ .
٥) اعجاز القرآن : ٥٥ .
٦) اعجاز القرآن : ٥٤ .
٧) اعجاز القرآن : ٥٤ .
٨) اعجاز القرآن : ٥٦ .
٩) سورة يس : ٦٩ ، اعجاز القرآن : ٥١ .
١٠) سورة الماعون : ١ – ٢ ، اعجاز القرآن : ٥٢ .

.../..

شعره فانقص حرف اللام من "فذلك" راصبحت "فذاك" :

"وقرا معلنا ليصدع قلبي ... والهوى يصدع الفؤاد السقيما
ارأيت الذى يكذب بالدين ... فذاك الذى يدع اليتيما"[١].

٢) نفي السجع عن القرآن :

والباقلاني ينفي السجع عن القرآن كما نفاه اصحابه من الاشعرية ، وخاصة شيخهم ابو الحسن[٢] . "فلو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن اساليب كلامهم ، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك اعجاز "[٣] ، والباقلاني لا يألف السجع ، بل يراه مذموما لما يخالط كلام الكهان من العرب ، ويحتج على نفيه من القرآن لشدة ضرره اكثر من نفي الشعر ، لان "الكهانة" في اعتباره "تنافي النبوات" بينما الشعر ليس له تأثير مضر بالاسلام كالكهانة .

ويميز الباقلاني كلام السجع عن كلام القرآن : فالسجع هو ما يتبع المعنى فيه اللفظ ، بينما كلام القرآن ليس كذلك ، اذ وجد ان اللفظ يتبع المعنى[٤] . ويجزم الباقلاني ان ليس في القرآن سجعا ، لان للسجع طرق خاصة "وان ما يدعونه سجعا هو متقارب الفواصل ، متداني المقاطع ، وبعضها مما يمتد حتى يتضاعف طوله عليه ، وترد الفاصلة على ذلك الوزن الاول بعد كلام كثير وهذا في السجع غير مرضي ولا محمود "[٥] .

٣) الحروف العربية بين اللغة والقرآن :

يذكر الباقلاني من عجيب نظام القرآن ومن ابتداء بعض السور ، بالحروف وعددها اربعة عشر حرفا مرددة في ثماني وعشرين سورة - بينما عدد حروف اللغة العربية تسع وعشرون حرفا[٦] . والاحرف المبتدأة في السور الثماني والعشرين تكون في الغالب ثلاثية ، وليس من احرف رباعية الا في سورتين ، وكذلك احرف خماسية في سورتين فقط[٧] . واما السور التي ابتدأت بحرف فقد اختلف

---

١) اعجاز القرآن : ٥٢ .
٢) اعجاز القرآن : ٥٧ .
٣) اعجاز القرآن : ٥٧ .
٤) اعجاز القرآن : ٥٨ .
٥) اعجاز القرآن : ٥٩ .
٦) اعجاز القرآن : ٤٤ .
٧) اعجاز القرآن : ١١٨ .

.../..

فيه ، فبعضهم جعله فعلا او اسما لشيء خاص وبعضهم جعله حرفا لتحقيق الحروف في مفردها وجمعها وهذا الحرف هو الحرف الباقي والزائد عن التقسيم بين حروف اللغة وحروف السور ، وهو الحرف التاسع والعشرين في عدد حروف اللغة العربية .(١)

وقد اهتم الباقلاني بتركيب اللغة العربية التي تميز عن غيرها من لغات العجم والترك لاعتدالها في الوضع (٢) ، وهذا ما يسمى بفلسفة تركيب الكلمة بحسب الحروف ، وهو برهان منفصل عن الحروف الواردة في اول بعض السور — ويرى ان اكثر كلمات اللغة العربية تبنى من الثلاثي المعتدل لصفته الحركية المميزة عن الثنائي والرباعي والخماسي . فالثنائي يمتاز بصفة حرفية اقل تؤدي الى التكرار كما يؤدي الرباعي والخماسي الى كثرة الكلمات (٣) .

ويذكر الباقلاني ان نصف التقسيمات المختلفة لحروف العربية يدخل في السور القرآنية ، دون ان يشير الى اي من هذه الحروف تحديدا . فالمهموسة مثلا عشرة احرف خمسة منها تدخل في السور القرآنية وهذه الخمسة غير محددة لا نعرف ايها التي يشير اليها ، وكذلك فعل بالنسبة للحروف الاخرى ولسوف اذكرها لاشير الى العدد الخاص بالسور القرآنية كما اشير الى العدد الخاص باللغة العربيـــة .

أ) تقسيم الحروف العربية في قسمين : حروف مهموسة واخرى مجهورة وعدد المهموسة عشرة هي : التاء ، والثاء ، والحاء ، والخاء ، والسين ، والشين ، والصاد ، والفاء ، والهاء ، ونصف هذه الحروف المهموسة والمجهورة ، يدخل في اوائل سور القرآن الثماني والعشرين .

ب) وتقسم الحروف العربية ايضا في حروف حلقية وحروف غير حلقية ، وعدد الحروف الحلقية ستة هي : الهمزة ، والحاء ، والخاء ، والعين ، والغين ، والهاء ، ونصف هذه الحروف الحلقية وغير الحلقية تشتمل عليها الحروف المثبتة في اوائل السور .

---

١) اعجاز القرآن : ١١٨ — ١١٩ .
٢) اعجاز القرآن : ١١٨ .
٣) اعجاز القرآن : ١١٨ .

../...

ج) وكذلك تنقسم الحروف العربية في حروف شديدة ، وحروف غير شديدة وعدد الحروف الشديدة ثمانية : الهمزة ، والباء ، والجيم ، والدال ، والطاء ، والكاف ، والقاف ، والكاف ، ونصفها من حروف شديدة وغير شديدة يذكر في اوائل السور .

د) وفي العربية ايضا حروف مطبقة وعددها اربعة هي : الصاد ، والضاد ، والطاء ، والظاء ، ونصف هذه الحروف مبدوء به في اوائل السور التي تبدأ بالاحرف . وقد عقب الباقلاني ان تقسيم هذه الحروف على هذا النحو هو دليل اعجاز حصل من الله تعالى تأيدا وتثبيتا لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم [1] .

٤) شمول الآية القرانية على كلمة او اكثر :

حاول الباقلاني لاظهار اعجاز القرآن ، ان يتبع طريقة في تقسيم الآيات القرآنية فرآهـا تنقسم في قسمين ، احدهما : ما يتم بنفسه ، او بنفسه وفاصلته ، وهذا تقسيم فكري ينتبه اليه الدارس معرفا اياه بالفقرة لتمامه بنفسه واحتوائه على اكثر من آية . وثانيهما : ان الآية قد تشتمل على "كلمتين" و "كلمات" وهذا ما يسمى عند الدارس بالتقسيم الجملي لاحتواء الآية على جملة فأكثر . والكلمة في تحديد الباقلاني وحدة تعبيرية مؤلفة فيما بينها ، وقائمة بذاتها ، وقد تكون جملة او شبه جملة او جار ومجرور [2] ومن الملاحظ ان الباقلاني في تحديده الثاني لم يتبع ترتيبا نعرفه اليوم بحيث يراعي دقة في التحديد هذا ، وهو شمول الآية على "كلمتين" او "كلمات" ، ولم يقل بشمولها على "كلمة" أو "كلمات" او على "كلمة" فأكثر .

ولما لم يأت الباقلاني على كلام في الآية المشتملة على كلمة واحدة كما في قوله ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾ [3] . مما لم يشر اليها تفصيلا بل اوردها في جملة الكلام المؤتلف كقوله ﴿حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذي الطول لا اله الا هو اليه المصير﴾ [4] . وقد يكون اتى على هذا لشرح المعنى ، كما فعل

١) اعجاز القرآن : ٤٤ ـ ٤٥ .
٢) اعجاز القرآن : ٢٠٥ .
٣) سورة غافر : ٢ ، اعجاز القرآن : ١٩٧ .
٤) سورة غافر : ١ ـ ٣ ، اعجاز القرآن : ١٩٧ .

.../..

لتشريع المبنى ، الا انه لم يحرف في تشريحه هذا دقة ، لربما دار همه اظهار المعجز الالهي فكان كلما اكتشف جديدا نقله دون ان يراعي الفصل والترتيب ، فينتقل من المعنى الى المبنى وبالعكس ، فقد كان يعقب باستمرار بمثل هذا القول : " هل يحسن احد ان يأتي بمثل هذا ... وان ينظم مثل هذا النظم ، وان يجد مثل هذه النظائر السابقة ، ويصادف مثل هذه الكلمات المتقدمة ؟ " ثم يقول : " ولولا كراهة الاملال ، لجئت الى كل فصل فاستقريت على الترتيب كلماته وبينت لك ما في كل واحدة منها من البراعة وعجيب البلاغة " [(١)] .

ومن كلمات الآية الواحدة ، ما هو مؤتلف فيما بينها ، وقد ظهرت قدرة الخالق وعظمته بالطباق مليح وايجاز لطيف ، فان كل كلمة منها تصلح ان تكون موضوعا لرسالة ، او خطبة ، او لقصيدة او فقرة [(٢)] . قال تعالى ﴿فالق الاصباح ، وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم﴾ [(٣)] .

وقد يكون من الكلمات ما تكمل الواحدة الاخرى ، وان كانت كل منها في آية منفردة عن الآية الثانية كما في هاتين الآيتين ﴿... وانك لتهدي الى صراط مستقيم﴾ [(٤)] ﴿صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الارض﴾ [(٥)] ، الا ان الباقلاني لم يشر اليهما متباعدتين في آيتين بل اشار اليهما مجتمعتين في آية واحدة وقد ذكرهما على هذا النحو ﴿وانك لتهدي الى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الارض . الا الى الله تصير الامور﴾ [(٦)] . ولربما اختلط الامر عليه ، فاعتبرهما آية واحدة ، فتابع تفصيله فيما تحتويه كلمات الاية القرآنية من مميزات مؤتلفة او مختلفة ، فقد اورد مثلا كلمتين مختلفتين في آية واحدة معتبرا الفقرة المذكورة واحدة ، الا ان الدارس لفكرة الباقلاني المتبعة في هذا التقسيم . ولترتيب الآيات القرآنية في سورة الشورى يستطيع ان يعيد الى الآية كلمتها التي انتزعت منها ، فتستقل عن الاخرى ، وتصبح الآيتان متجاورتين كما حصل في اعادة كلمة ﴿... وانك لتهدي الى صراط مستقيم﴾ الى الآية ٥٢ من سورة الشورى فاستقلت بذلك الآية التي تليها ، وباتت كلمتاهما غير المؤتلفتين لانفصالهما عن بعضهما وتباينهما ،

---

١) اعجاز القرآن : ١٩٦ .
٢) اعجاز القرآن : ١٨٨ .
٣) سورة الانعام : ٩٦ ، اعجاز القرآن : ١٨٨ .
٤) سورة الشورى : ٥٢ ، اعجاز القرآن : ١٨٧ .
٥) سورة الشورى : ٥٣ ، اعجاز القرآن : ١٨٧ .
٦) سورة الشورى : ٥٣ ، اعجاز القرآن : ١٨٧ .

.../..

الا ان شريف النظم ، وهذا تعبير باقلاني ـ جمع بينها ، فصارت اشد ائتلافا من الكلام المؤلف(١) ﴿صراط الله الذى له ما في السماوات وما في الارض · الا الى الله تصير الامور﴾(٢) ·

وقد تشتمل الآية الواحدة على اكثر من كلمة ﴿ان فرعون علا في الارض · وجعل اهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم ، ويذبح ابناءهم ، ويستحي نساءهم ، انه كان من المفسدين﴾(٣) · هذه الكلمات الست تشتمل على جملة وتفصيل ، فتجمع حيث يكون الجمع وتفسر حيث يكون التفسير ان فرعون علا واستكبر على بني الانسان ثم جار وظلم الخلق ، فاستضعفهم وذبح اولادهم وسبى نساءهم فقد كان من القوم المفسدين(٤) ·

وقد تكون الآية خمس كلمات متباعدة في وقتها الا ان النظم البديع جعلها اشد ائتلافا من الاشياء المتآلفة واحسن توائقا من المتطابقة في وضعه ، كقوله : ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، واحسن كما احسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد في الارض · ان الله لا يحب المفسدين﴾(٥) ·

ومن الكلمات ما تكون مفردة بفواصلها ومنها ما يتضمن فاتحة ، وفاصلة ومنها ما هي فاتحة وواسطة وفاصلة(٦) · كقوله : ﴿وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الامين · على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾(٧) · كما ان من الآيات ما تجمع في كلماتها من شريف المعنى وحسن الفاتحة والخاتمة وهي من الكلام المؤتلف كقوله تعالى ﴿حم · تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم · غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب · ذى الطول لا آله الا هو اليه المصير﴾(٨) · فان " فطنت ، فانظر الى ما قال من رد عجز الخطاب الى صدره بقوله ﴿فأخذتهم فكيف كان عقاب﴾(٩) " ·

---

١) اعجاز القرآن : ١٨٧ ·
٢) سورة الشورى : ٥٣ ·
٣) سورة القصص : ٤ ، اعجاز القرآن : ١٩٣ ·
٤) اعجاز القرآن : ١٩٣ ·
٥) سورة القصص : ٧٧ ، اعجاز القرآن : ١٩٤ ·
٦) اعجاز القرآن : ١٩٦ ·
٧) سورة الشعراء : ١٩٢ـ ١٩٥ ، اعجاز القرآن : ١٩٦ ·
٨) سورة غافر : ١ ـ ٣ ، اعجاز القرآن : ١٩٧ ·
٩) سورة غافر : ٥ ، اعجاز القرآن : ١٩٨ ·

٠٠/٠٠٠

ويصف الباقلاني كلمات القرآن معجبا "فانه اذا رآها الانسان في رسالة كانت عينها ... فهي كالياقوتة التي تكون فريدة العقد ... ولست اقول هذا في آية دون آية وسورة دون سورة وفصل دون فصل " (١) . ويأتي على تبيان عجيب نظم الكلام المفصل ، وعظيم موقعه ، فقد تكون الكلمة الواحدة فصلا ﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة ، وعلما﴾ (٢) ، ما الكلام المفصول عند الباقلاني هو الكلام المميز في المعنى عما سبق ومضى والمنسوب الى ما تقدم قال تعالى ﴿كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم وهمت كل امة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق . فأخذتهم فكيف كان عقاب﴾ (٣) وقد يكون في الفقرة الواحدة المؤلفة من آيتين ستة فصول ، ففي الآية التي وردت اربعة فصول ، كما ان في الآية التي تليها فصلان ﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا انهم اصحاب النار﴾ (٤) .

ومن الكلمات ما تشير الى قصة كاملة ، ففي سورة النمل يبين ان القرآن من عند الله ﴿وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ (٥) وقصة موسى وقد رأى نارا فقال لاهله امكثوا ﴿اني انست نارا سآتيكم منها بخبر او اتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون﴾ (٦) .

ويبين الباقلاني بعض الايات التي وردت في الاحكام ومنها في الحلال والحرام كقوله ﴿يسألونك ماذا احل لهم ؟ قل احل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله ، فكلوا مما امسكن عليكم . واذكروا اسم الله عليه ، واتقوا الله ، ان الله سريع الحساب﴾ (٧) . وكذلك يذكر ان من الآيات ما وردت في المواريث كالايات الثلاث دون ان يشير اليها في كتابه وهذه الآيات وردت في سورة النساء (٨) . ثم يعود الى آيات التوحيد واثبات النبوة وقد ابتدأ بها فصله هذا قال تعالى ﴿وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدي الى صراط مستقيم﴾ (٩) . وكقوله :

---

١) اعجاز القرآن : ٢٠٠ .
٢) سورة غافر : ٧ ، اعجاز القرآن : ١٩٨ .
٣) سورة غافر : ٥ ، اعجاز القرآن : ١٩٧ .
٤) سورة غافر : ٦ ، اعجاز القرآن : ١٩٧ .
٥) سورة النمل : ٦ ، اعجاز القرآن : ١٨٦ .
٦) سورة النمل : ٧ ، اعجاز القرآن : ١٨٩ .
٧) سورة المائدة : ٤ ، اعجاز القرآن : ٢٠٠ .
٨) سورة النساء : ١٠ ــ ١١ ، ١٧٥ .
٩) سورة الشورى : ٥٢ ، اعجاز القرآن : ١٨٦ .

.../..

﴿هو الحي لا آله الا هو فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين﴾ (١) ، وقوله في النبوة ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ، الذي له ملك السماوات والارض ولم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك في الملك ، وخلق كل شيء فقدره تقديرا﴾ (٢) .

ويعتبر الباقلاني ان اعجاز القرآن ليس في البراعة وابانة الفصاحة بقدر ما هو في المعنى وترتيبه ، ففي القرآن من الكلام المطلق والاشارات الكثير منها ، واذا بلغ الكلام من هذا القبيل مبلغا ربما زاد الفهم فيه على الايضاح او ساوى مواقع التفسير والشرح مع استيفائه شروطه (٣) . وذلك كقوله ﴿سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ، انه هو السميع البصير﴾ (٤) . ثم لم يخل تضاعيف الكلام ــ على حد قول الباقلاني ــ مما ترى من الموعظة على اعجب تدريج كقوله : ﴿ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان اسأتم فلها﴾ (٥) .

٥) بديع الكلام دلالة على اعجاز القرآن :

يتعرض الباقلاني لاسلوب القرآن ويخرج ما استطاع مما يتضمنه من بديع الكلام ، فالالفاظ الفصيحة ، والكلمات الجامعة الحكيمة هي من البديع الذي يستعمل عادة في البيان ، قال تعالى : ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ (٦) .

واما البديع في كلام الرسول والصحابة ، وفي شعر فحول الشعراء ، امثال امرىء القيس والنابغة وزهير بن ابي سلمى ، والفرزدق والاخطل ، فهو بديع لا يوازى ببديع القرآن الابلغ والاعمق . وقد حاول الباقلاني ان يجمع مختلف وجوه البديع ، (٧) ويأتي بامثلة من القرآن الكريم ليظهر بديع نظامه : في التشبيه ، والاستعارة والغلو ، والافراط ، والمماثلة ، والمطابقة ، والتجنيس

١) سورة غافر : ٦٥ ، اعجاز القرآن : ٢٠١ .
٢) سورة الفرقان : ١ ــ ٢ ، اعجاز القرآن : ٢٠١ .
٣) اعجاز القران : ٢٠٩ .
٤) سورة الاسراء : ١ ، اعجاز القرآن : ٢٠٩ .
٥) سورة الاسراء : ٧ ، اعجاز القرآن : ٢١٠ .
٦) سورة البقرة : ١٧٩ ، اعجاز القرآن : ٦٦ .
٧) اعجاز القرآن : ٦٦ !

.../..

والمقابلة ، والموازنة ، والاشارة ، والتوشيع ، والتقسيم ، والتكميل ، والتتميم ، والترصيع ، والالتفات ، والتذييل ، والاستطراد والتكرار ، والاستثناء ، والتعطف ، والتكافوء ، والسلب والايجاب [1] .

وفي وجوه البلاغة ايضا وقد ذكرها في مكان اخر من الكتاب [2] ، وجمع منها : الايجاز ، والتلاؤم . والفواصل ، والتضمين ، والمبالغة ، والبيان [3] . واعطى امثلة من شعر العرب وخطابهم وما كتبوه في فنون الكلام وبديع القول وبليغه محاولا ان يظهر بلاغة القرآن المعجزة . ولسوف آتي على امثال اختارها الباقلاني من القرآن ، ومن مختلف شعر شعراء العرب وبلاغة بلغائهم في اقوال مذكورة لهم . الا انني اتباعا للمنهج الذي فرضه الباقلاني على الكتاب وللمنهج الذي اتبعته في بيان طريقته في اظهار القرآن معجزا آلهيا ، سوف اضع الامثلة البلاغية التي اختارها الباقلاني من القرآن في المتن ، واضع الامثلة الاخرى من شعر وحكم وكلام في الحاشية .

يقول الباقلاني ان من وجوه البديع : "التشبيه" الحسن في قوله تعالى : ﴿وله الجوار المنشآت في البحر كالاعلام﴾ [4] [5] : "والاستعارة" وهي كثيرة في القرآن كقوله ﴿وانه لذكر لك ولقومك﴾ [6] ، [7] . واما "الغلو والافراط" في الصفة ، فمن البديع ايضا وقد ورد في القرآن منه قوله تعالى : ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾ [8] ، [9] . ومن البديع

---

١) اعجاز القرآن : ٦٦ ــ ١١٠ .
٢) اعجاز القرآن : ٢٦٢ .
٣) اعجاز القرآن : ٢٦٢ ــ ٢٨٧ .
٤) سورة الرحمن : ٢٤ ، اعجاز القرآن : ٧٣ .
٥) وفي شعر امرىء القيس من التشبيه الحسن كقوله :
"كأن عيون الوحش حول خبائنا وارحلنا الجزع الذي لم يثقب" (انظر اعجاز القرآن : ٧٢)
٦) سورة الزخرف : ٤٤ ، اعجاز القرآن : ٧٧ .
٧) للنابغة استعارة بليغة في قوله : "فانك كالليل الذي هو مدركي ..... وان خلت ان المنتأى عنك واسع" يريد بقوله هذا ان سلطان النعمان كالليل يصل الى كل مكان : (انظر اعجاز القرآن : ٧٥ .)
٨) سورة ق : ٣٠ ، اعجاز القرآن : ٧٨ .
٩) يقول عنترة :
فازور من وقع القنا بلبانه
وشكا الي بعبرة وتحمحم "
(انظر اعجاز القرآن : ٧٧ .)

.../..

"المماثلة" وهو ضرب من الاستعارة ، والمماثلة مبنية على الايجاز والجمع . كقوله تعالى : ﴿فما اصبرهم على النار﴾ (١)،(٢) . ومن البديع "المطابقة" في الكلام فيأتي المعنى فيه بذكر الشيء كالليل والنهار . والسواد والبياض كقوله ﴿يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي﴾ (٣)،(٤) . ويعني "التجنيس" ان تأتي بكلمتين متجانستين ، ومن الجناس ان تكون الكلمة تجانس الاخرى في تأليف حروفها ومعناها قال تعالى : ﴿فأقم وجهك للدين القيم﴾ (٥)،(٦) . "والمقابلة" من البديع ايضا . وتعني المقابلة التوفيق بين معان ونظائرها ، وبين المضاد وضده ، قال تعالى : ﴿ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون . ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون﴾ (٧)،(٨) . وكذلك "الموازنة" من البديع كقوله ﴿والسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود﴾ (٩)،(١٠) . "والاشارة" وهي اشتمال اللفظ القليل على المعاني الكثيرة قال تعالى : ﴿ولو ان قرآنا سيرت به الجبال او قطعت به الارض او كلم به الموتى بل لله الامر جميعا﴾ (١١)،(١٢) . واما "التوشيح" ان يشهد اول الكلام

---

١) سورة البقرة : ١٧٥ ، اعجاز القرآن : ٨٠ .

٢) ونظير كلام القرآن من المنثور : ان يزيد بن الوليد بلغه ان مروان بن محمد يتلكأ عن بيعته فكتب اليه : "اما بعد ، فاني اراك تقدم رجلا وتؤخر اخرى ، فاعتمد على ايتهما شئت" . (انظر اعجاز القرآن : ٧٨ .)

٣) سورة الروم : ١٩ ، اعجاز القرآن : ٨٠ .

٤) قال الفرزدق : والشيب ينهض في الشباب كأنه ليل يصيح بجانبيه نهار "(انظر اعجاز القرآن : ٨٢ .)

٥) سورة الروم : ٤٣ ، اعجاز القرآن : ٨٣ .

٦) قال النبي صلى الله عليه : "لا يكون ذو الوجهين وجيها عند الله" وقال معاوية لابن عباس : مالكم يا بني هاشم تصابون في ابصاركم ؟ فقال : كما تصابون في بصائركم فهذا الكلام من الجناس . (انظر اعجاز القرآن : ٨٤ .)

٧) سورة النحل : ٥٣ - ٥٤ ، اعجاز القرآن : ٨٨ .

٨) وفي معنى المقابلة قال النابغة الجعدي : فتى تم فيه ما يسر صديقه على ان فيه ما يسوء الاعاديا "(انظر اعجاز القرآن : ٨٨ .)

٩) سورة البروج : ١ - ٢ - ٣ ، اعجاز القرآن : ٨٩ .

١٠) والموازنة في قول بعضهم : اصبر على حر اللقاء ومضض النزال وشدة المصاع "(انظر اعجاز القرآن : ٨٨ .)

١١) سورة الرعد : ٣١ ، اعجاز القرآن : ٩١ .

١٢) كقول طرفه : فظل لنا يوم لذيذ بنعمة فقل في مقيل نحسه متغيب "(انظر اعجاز القرآن : ٩٠ .)

../..

في آخره وآخره في اوله ﴿فمن تاب من بعد ظلمه واصلح فان الله يتوب عليه ، ان الله غفور رحيم﴾ (١) ، (٢) . ومن التوشيح ايضا "عجز الكلام على صدره" كقول الله عز وجل ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللاخرة اكبر درجات واكبر تفضيلا﴾ (٣) .

كما ان "التقسيم الصحيح" من البديع قال تعالى ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات﴾ (٤) (٥)

واذا اتى بالمعنى الذى بدأ به بجميع المعاني المصححة المتممة لصحته المكملة لجودته من غير ان يخل ببعضها ، ولا ان يغادر شيئا منها يسمى "التكميل والتتميم" كقوله ﴿ان الله عنده علم الساعة﴾ ، ثم قال ﴿ان الله عليم خبير﴾ (٦) ، (٧) . واما "الترصيع" فيكون على الوان : منه الترصيع مع التجنيس قال تعالى ﴿والطور وكتاب مسطور﴾ (٨) (٩)

كذلك "العكس والتبديل" يدخل ايضا في باب البلاغة كقوله ﴿يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل﴾ (١٠) (١١) ، وكذلك من "البديع" "الالتفات" وهو اعتراض في الكلام ، ينتهي من الكلام ثم يرجع اليه قال تعالى ﴿اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير

[illegible]

---

١) سورة المائدة : ٣٩ ، اعجاز القرآن : ٩٢ .

٢) والتوشيح في قول البحتري : فليس الذى حللته بمحلل
وليس الذى حرمته بحرام (انظر اعجاز القرآن : ٩٢) .

٣) سورة الاسراء : ٢١ ، اعجاز القرآن : ٩٣ .

٤) سورة البقرة : ٢٥٧ ، اعجاز القرآن : ٩٤ .

٥) والتقسيم الصحيح ينظر في شعر بعض العرب كقول نصيب :
فقال فريق القوم لا ، وفريقهم نعم وفريق قال : ويحك ما ندرى .
(انظر اعجاز القرآن : ٩٤)

٦) سورة لقمان : ٣٤ ، اعجاز القرآن : ٩٥ .

٧) من صور التتميم والتكميل في الشعر العربي صورة لنافع بن خليفة :
رجال اذا لم يقبلوا الحق منهم ويعطوه عادوا بالسيوف القواطع (انظر اعجاز القرآن : ٩٥) .

٨) سورة الطور : ١ - ٢ ، اعجاز القرآن : ٩٦ .

٩) في الترصيع قول لابن الرومي : ابدانهن وما لبسن من الحرير معا حرير
اردانهن وما مسسن من العبير معا عبير (انظر اعجاز القرآن : ٩٧)

١٠) سورة الحج : ٦١ ، اعجاز القرآن : ٩٩ .

١١) قال الحسن على نحو العكس والتبديل : "ان من خوفك لتأمن خير ممن امنك ==
٠٠/٠٠٠

لكم ان كنتم تعلمون ، انما تعبدون من دون الله اوثانا وتخلقون افكا ﴾ (١) ، (٢) .

ومن البديع ما يسمى " التذييل " مثل قوله ﴿ ان فرعون علا في الارض وجعل اهله شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحي نساءهم ، انه كان من المفسدين ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ، ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ﴾ الى قوله ﴿ كانوا خاطئين ﴾ (٣) ، (٤) . ومن باب البديع ما يسمى " الاستطراد " ويكثر نظيره في القرآن كقوله ﴿ اولم يروا الى ما خلق الله من شيء يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون ولله يسجد ما في السماوات وما في الارض من دابة ، والملائكة وهم لا يستكبرون ﴾ (٥) ، (٦) . ويكثر " التكرار " في القرآن وهو من البديع ايضا قال تعالى : ﴿ فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا ﴾ (٧) ، (٨) .

ومن وجوه البلاغة ايضا : الايجاز والتشبيه والاستعارة ، والفواصل ، والتجانس والتصريف والتضمين ، والمبالغة وحسن البيان (٩) ، وقد رد الباقلاني على الذين صنفوا البلاغة ، وقسموها الى عشرة اقسام (١٠) بامثلة لها من القرآن الكريم . " فالايجاز " ينقسم

== لتخاف (وكقوله " اللهم اغنني بالفقر اليك ، ولا تفقرني بالاستغناء عنك " انظر اعجاز القرآن : ٩٨) .

١) سورة العنكبوت : ١٦ — ١٧ ، اعجاز القرآن : ١٠٠ .

٢) يقول حسان في معنى الالتفات :
ان التي ناولتني فرددتها   قتلت قتلت فهاتها لم تقتل " . (انظر اعجاز القرآن : ١٠٠) .

٣) سورة القصص : ٣ — ٤ — ٨ ، اعجاز القرآن : ١٠٣ .

٤) ومثل التذييل في قول للحطيئة :
" قوم اذا عقدوا عقدا لجارهم   شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا " انظر اعجاز القرآن : ١٠٣) .

٥) سورة النحل : ٤٨ — ٤٩ ، اعجاز القرآن : ١٠٦ .

٦) وقول السموآل فيه استطراد مثل :
وانا لقوم لا نرى القتل سبة   اذا ما رأته عامر وسلول " انظر اعجاز القرآن : ١٠٤) .

٧) سورة الشرح : ٥ — ٦ ، اعجاز القرآن : ١٠٦ .

٨) وقد ورد في التكرار امثال منها كقول الشاعر :
هلا سألت جموع كنـ   دة يوم ولوا اين اينا " انظر اعجاز القرآن : ١٠٦) .

٩) اعجاز القرآن : ٢٦٢ .

١٠) يرد الباقلاني هنا على علي بن عيسى الرماني الذى قسم البلاغة الى عشرة اوجه في كتابه " النكت في اعجاز القرآن " (انظر ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ٦٩) ./...

الى حذف وقصر ، فالحذف : هو الاسقاط للتخفيف كقوله ﴿واسأل القرية﴾ (١) . اما الايجاز بالقصر كقوله ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ (٢) . ويسمى تعديل الحروف في التأليف تلاؤما وهو نقيض التنافر (٣) . ويعتبر الباقلاني ان التلائم في الطبقة العليا وان القرآن كله متلائم (٤) ، ومعنى التلاؤم " حسن الكلام في السمع وسهل اللفظ ، وحسن البيان وصحة البرهان . واما " الفواصل " فهي حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها فهم المعنى وتختلف الفواصل عن الاسجاع التي يتبعها المعنى ، فالفواصل تابعة للمعنى كقوله تعالى ﴿فمن اعتدى عليكم ، فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ (٥) . وقد تقع الفواصل على حروف متقاربة ، وعلى حروف متجانسة وهي كثيرة في القرآن (٦) . اما التضمين : فعلى وجهين : تضمين توجبه البنية ، وتضمين يوجبه معنى العبارة كقوله ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ هذا يعتبر من باب التضمين لانه تضمن تعليم الاستفتاح في الامور باسمه على وجهة التعظيم لله تبارك وتعالى (٧) . " والمبالغة " في البلاغة تدل على كثرة المعنى وقد تكون في الصفة المبنية كقولك " رحمان " بدل عن " راحم " وكذلك " غفار " (٨) ، واما المبالغة باللفظة فهي صفة عامة كقوله ﴿خالق كل شيء﴾ (٩) . ثم ان " حسن البيان " من البلاغة ونقيضه العي (١٠) وهو على اربعة اقسام : كلام ، وحال واشارة وعلامة . قال تعالى ﴿الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان﴾ (١١) . وكقوله

---

١) سورة يوسف : ٨٢ ، اعجاز القرآن : ٢٦٢ .
٢) سورة البقرة : ١٧٩ ، اعجاز القرآن : ٢٦٣ .
٣) كقول الشاعر في التنافر : وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر [انظر اعجاز القرآن : ٢٦٩ .)
٤) اعجاز القرآن : ٢٧٠ .
٥) سورة البقرة : ١٩٤ ، اعجاز القرآن : ٢٧١ .
٦) ومثلها في الشعر لعمرو بن كلثوم :
الا لا يجهلن احد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا " (انظر اعجاز القرآن : ٢٧١ .)
٧) اعجاز القرآن : ٢٧٣ .
٨) اعجاز القرآن : ٢٧٣ .
٩) سورة الزمر : ٦٢ ، اعجاز القرآن : ٢٧٤ .
١٠) نقيض البيان العي ، قيل اعيا من باقل . سئل عن ظبية في يده : بكم اشتراها فاراد ان يقول : باحد عشر ، فاشار بيده مادا اصابعه العشرة ، ثم ادلع لسانه وافلتت الظبية من يده (انظر اعجاز القرآن : ٢٧٤ .)
١١) سورة الرحمن : ١ - ٢ - ٣ - ٤ ، اعجاز القرآن : ٢٧٥ .

.../..

أفنضرب عنكم الذكر صفحا ان كنتم قوما مسرفين"(١)" فبيان القرآن اشرف بيان في نظر الباقلاني ـ واهداه واكمله واعلاه وابلغه واسناه "(٢).

وقد بين الباقلاني وجوها من البديع "كالمساواة "(٣)، "والمبالغة والغلو"(٤)، و"الايغال "(٥)، و"صحة التفسير "(٦) و"التكافوء "(٧)" والسلب والايجاب "(٨). و"الكناية والتعرض" (٩) وسمى البعض منها ابوابا كباب "الاستثناء "(١٠)" والتعطف" و"المطابقة" وقد ذكرها دون ان يأتي بامثلة من شعر العرب وكلامهم المنثور. وليست بنا حاجة الى الامثلة هذه خوفا من ان نخرج عن الغرض الذى اراده الباقلاني من اظهار بلاغة القرآن .

ان القدرة الالهية التي جعلت القرآن معجز ، هي المسألة الاولى المستنتجة وان كانت المسألة المثارة في كتاب الاعجاز بلاغة القرآن وقد اخذت اهمية كبرى من الباقلاني فاظهر بناء كلمات القرآن من حيث تركيبها وبالتالي وضعها في الجملة . وقد قال الله تعالى "قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا"(١١). فالباقلاني في بحثه هذا عن اعجاز القرآن وتمييز اسلوبه على كل فن من فنون الادب والشعر ، سواء كان عربيا ام اعجميا ، اوضح ما كان قد سبقه من بحوث

---

(١) سورة الزخرف : ٥ ، اعجاز القرآن : ٢٨٢ .
(٢) اعجاز القرآن : ٢٨٢ .
(٣) اعجاز القرآن : ٨٩ .
(٤) اعجاز القرآن : ٩١ .
(٥) اعجاز القرآن : ٩٢ .
(٦) اعجاز القرآن : ٩٥ .
(٧) اعجاز القرآن : ٩٧ .
(٨) اعجاز القرآن : ٩٨ .
(٩) اعجاز القرآن : ٩٨ .
(١٠) اعجاز القرآن : ١٠٦ .
(١١) سورة الاسراء : ٨٨ ، اعجاز القرآن : ١٨ .

.../..

حول المعجز الالهي الذي ظهر بأياته "ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل" (١). فاغنى الفكر العربي بكتابه هذا في الاعجاز ما دفع البعض (٢). بعده الى تمييز اعجاز القرآن على غيره من الكتب والرسالات، دون كون او ابتعاد فقد انتصر لفكرة فتح باب الكلام في اسلوب القرآن وقد ظهر على رجل امي لا يحسن القراءة والكتابة، فنبر بالغيب باسلوب تحدى كل نظم، وفاق كل فن مما ألزم القول بالصرفة قرونا طويلة فلا انتقاد لهذا المعجز الالهي ولا تحدى. الا ان الباقلاني كغيره ممن سبقه (٣). ابعد القول بتلك – الفكرة المعتزلية – التي صرفت الاذهان زمنا طويلا عن الاشتغال باسلوب القرآن وبيان اعجازه.

واذا كان الباقلاني قد اثار في كتاب الاعجاز هذا، مسألة القدرة فقد حاول في كتاب البيان (٤)، ان يوضح تأثير هذه القدرة وتمييزها عن القدرة البشرية المستمدة منها، وبالتالي تمييز المعجز عن السحر والكهانة والشعوذة.

كما حاول في كتاب التمهيد (٥) وفي فصل خاص (٦)، ان يثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ويظهر القرآن معجزا من الله تعالى وقد كان هذا الفصل ردا على البراهمة (٧)، واليهود (٨) فاوجب ارسال الرسل، اذ ليس العقل وحده هاديا ومرشدا للمكلف، فالسمع ايضا يهدى للشرائع الواجبة من الله تعالى الى خلقه، كما اوجب نسخ الشرائع بالرسل المرسلين من الله، اذ انه تعالى ارسل عيسى ومحمد بعد موسى، فليس موسى وحده نبيا مرسلا منه تعالى.

---

١) سورة الاسراء : ٨٩.

٢) ذكرنا نقلا عن الموسوعة الاسلامية طبعة ١٩٦٠ مادة اعجاز تأثير الباقلاني على عبد القاهر الجرجاني وفخر الدين الرازي.

٣) امثال الخطابي والرماني – انظر ثلاث رسائل في اعجاز القرآن، الموسوعة الاسلامية مادة اعجاز – طبعة ١٩٦٠.

٤) وقد اتيت على شرح هذه الفكرة عندما بحثت حول كتاب البيان

٥) اشرت في حينه الى التاريخ التقريبي لكتاب التمهيد وكتاب البيان، ثم كتاب الاعجاز وذلك بعد ان اطلعت على مختلف آراء المحققين المثبتة بادلة وبراهين، وجدت ان الباقلاني الف كتاب التمهيد اولا ثم كتاب البيان ثم كتاب الاعجاز.

٦) التمهيد طبعة ١٩٥٧ : ١٣٢ – ١٥٩.

٧) التمهيد طبعة ١٩٥٧ : ١٠٤ – ١٣١.

٨) التمهيد طبعة ١٩٥٧ : ١٦٠ – ١٨٨.

.../..

وقد شملت افكار الباقلاني في التمهيد ما جاء في كتاب الاعجاز وكتاب البيان فحشر في هذا الفصل ما وسعه في الكتابين المذكورين مثل را القدرة الالهية الخارقة التي لا تنفك تتدخل باستمرار في كل شيء ، وفي كل وقت ، فالله قادر على ارسال الرسل والانبياء ، وقادر على اظهار المعجز على ايديهم ، وقد اخبرنا ان لا نبي بعد محمد لما جاء في القرآن من نص الهي على ذلك .

وقد حاولت في بحثي في كتاب التمهيد ان اجمع مختلف افكار الباقلاني الاخرى التي يتناول فيها مسائل مختلفة عن هذه . ولسوف اعرضها مفصلة في الفصل الثالث من هذا الباب .

../..

الفصل الثالث

حول كتاب التمهيد

====

٦

ثالثا : حول كتاب التمهيد :

وضع الباقلاني كتاب التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة ، بناء على رغبة الامير ابن عضد الدولة [(١)] ، ليتزود بزاد المعرفة في امور دينه ودنياه ، فجاء الكتاب جامعا مختصرا لمواضيع شتى في علم الكلام ، وقد صدر هذا الكتاب في نشرتين [(٢)] الثانية "تكمل الاولى من حيث الفصول الناقصة في الكلام والتي فاقت على الثلث [(٣)] بينما النشرة الاولى تحتوي على باب الامامة المسقط من النشرة الثانية ، وبهذا اعتمدت النشرتين لاعرف فحوى الكتاب ككل ، واحلل مادته واقومها ، فآخذ بعين الاعتبار طريقة الباقلاني التي سار عليها في وضع هذا الكتاب ، وقد اعلن عنها في مقدمته [(٤)] ، للكتاب فاقسمه في ثلاثة اجزاء . ففي الجزء الاول [(٥)] ، رد الباقلاني على المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة وهي فرق اسلامية ، وفي الجزء الثاني [(٦)] ، رد على سائر الملل الاخرى من اللا موحدة من اصحاب الطبائع والمنجمين ، واهل التثنية والمجوس ، ومن الموحدة من اهل الملل المخالفة لملة الاسلام من النصارى واليهود ، اما في الجزء الثالث [(٧)] ، فقد ذكر مناقب الصحابة ، وفضائل الائمة الاربع ثم اثبات امامتهم .

---

١) يذكر الآب ريتشرد يوسف مكارتي في مقدمته لكتاب التمهيد ان الامير صمصام الدولة هو الذي طلب من الباقلاني تأليف الكتاب (انظر : ٢٢ من المقدمة) وصمصام الدولة هو ابو كاليجار المرزبان ابن عضد ، وقد كان وليا للعهد فلما توفي والده نصب مكانه ولربما يكون هذا سبب من الاسباب التي دعت الآب مكارتي الى التيقن من شخصيته فذكر اسمه (انظر الكامل في التاريخ ٩ : ٢٢) .

٢) صدر التمهيد في القاهرة سنة ١٩٤٧ بتحقيق محمود محمد الخضيري ومحمد عبد الهادى ابو ريدة وصدر في بيروت ١٩٥٧ بتحقيق الآب ر. مكارتي .

٣) مقدمة التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٠ .

٤) حاول الآب د . ميشال الارني كتابه المترجم المخطوط مشكلة الصفات الالهية وعلى ورقة ٢٩٧ ، ان يتبع تقسيما خاصا لكتاب التمهيد مستعينا بالنشرتين الصادرتين ١٩٤٧ و ١٩٥٧ ، وقد اراد بهذا التقسيم تطبيق المنهج المعتزلي في مباحث علم الكلام ، فبدأ اولا بالتوحيد ، ثم العدل ثم المنزلة بين المنزلتين ، وبعدها القيامة او الوعد والوعيد ، ثم الامامة .

٥) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٦ ـ ٣٢ .

٦) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٤ ـ ١٩٠ .

٧) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٦٠ ـ ٢٣٩ .

.../..

وقد حاولت جهدي ان انسق ما جاء في الكتاب سواء في نشرته الاولى الصادرة سنة ١٩٤٧ ، او في نشرته الثانية الصادرة سنة ١٩٥٧ . فجعلت الفصل الاول (١) ، من الجزء الاول من الكتاب ، وقد تناول الباقلاني حقيقة العلم ، والمعلومات والموجودات وفي الفصل الثاني (٢) ، تناول وجود الله وصفاته وفي معنى الصفة وفي الاسم والمسمى ، وتكلم في الاحوال ، والكلام الالهي ، وفي خلق القرآن ، وذكر ابوابا شتى في الصفات : من كلام الله ، وارادته لجميع المخلوقات ، ومن استطاعة الانسان وقدرته على التصرف ، ثم الكلام في خلق الافعال البشرية ، واتى الباقلاني ايضا على الكلام في قضاء الله تعالى في المعاصي ، والارزاق والآجال ، وفي الهدى ، والضلال ، وفي اللطف ، ثم الكلام في التعديل والتجوير . اما في الفصل الثالث (٣) ، فقد تكلم الباقلاني في الايمان والاسلام ، وفي الخصوص والعموم ، وفي شفاعة الانبياء .

اما الجزء الثاني فيحتوي على ثلاثة فصول : في الفصل الاول (٤) ، وتكلم المؤلف على القائلين بفعل الطبائع ، والمنجمين ، واهل التثنية ، ثم على المجوس ، وفي الفصل الثاني (٥) ، تكلم على سائر الملل الموحدة ، والمخالفة لملة الاسلام كالنصارى والبراهمة واليهود ، وفي الفصل الثالث (٦) ، اثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم واظهر القرآن معجزة الهية . واما الجزء الثالث ففيه ثلاثة فصول ايضا : الفصل الاول (٧) ، كان في معنى الخبر وانواعه ، والفصل الثاني (٨) ، في حكم اختيار الامام وموجبات خلعه ، وفي الفصل الثالث (٩) ، كان في امامة الخلفاء الراشدين وقد ذكر الباقلاني في هذا الفصل مناقب الائمة الاربعة مختصرا وواعدا ان يطول في مآثرهم في كتاب مناقب الائمة (١٠) .

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ٦ ــ ٢١ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٢ ــ ٣٢ ، ١٩٧ ــ ٣٤٥ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٤٦ ــ ٣٧٧ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٤ ــ ٧٣ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٧٥ ــ ١٢١ ، ١٦٠ ــ ١٩٠ .
٦) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٢٢ ــ ١٥٦ .
٧) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٦٠ ــ ١٧٨ .
٨) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٧٨ ــ ١٨٧ .
٩) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٨٧ ــ ٢٣٩ .
١٠) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ٢٢٩ .

../..

١) الكلام في وجود الخالق وصفاته :

أ) الكلام في حد العلم :

حدد الباقلاني العلم بمعرفة المعلوم على ما هو به ، وليس بمعرفة الشيء على ما هو به ، لان المعلوم يدخل فيه الشيء وما ليس بشيء اى المعدوم (١) ، وهذا التعريف جامع مانع لاحاطته بالمعنى وحصره ثم تمييزه ، فالمعلوم اعم من الشيء - وهذا تحديد للباقلاني والمتكلمين - لان المعلوم يدخل فيه الموجود والمعدوم والقديم والمحدث (٢) ، ويرى الباقلاني ان علم الله قديم بذاته ، وليس علما ضروريا او استدلاليا لان هذه العلوم حادثة تحصل للمخلوقات من جن وانس وحيوان ، فعلم الله على عكس علم المخلوقات اذ علمها محدث من الله تعالى يحصل في انفسها بالضرورة والحس او بالاستدلال بعد تفكر ونظر (٣). وهذا ما يسمى بالعلم المكتسب . ويعرف الباقلاني العلم الضرورى - الخاص بالمخلوقات بانه علم يحدث في نفس المخلوق بقدرة غير قدرته فيلتزم به التزاما ضروريا ملحا . والعالم به محتاج اليه ضرورة لانه يحصل في نفسه من غير شك ولا ريبة وبواسطة الحواس الخمس كما يحصل بواسطة الادراك (٤) . فالحواس الخمس يحصل البصر والسمع ، والذوق ، والشم واللمس ، وبالادراك يحصل علم الانسان بوجود ذاته - ويقصد المتكلم الى ما يقصد وغير ذلك من الصحة والالم ، فعلم الادراك غير علم الحواس يخترعه الله تعالى في نفس المخلوق من غير ابتداء ، وهذا ما يسميه الباقلاني بالعلم النظرى الذى يبنى على علم الضرورة والحس وهو كما سبق ان ذكرنا كسبي (٥).

ب) في تحديد المعلومات :

يقسم الباقلاني المعلومات في قسمين : معدوم وموجود ، والمعدوم : هو المنتفي وليس بشيء (٦) وهو خمسة انواع بحسب قسمة الباقلاني (١) - معلوم معدوم لم يوجد ولا يصح ان

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٦ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٣٤ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٨ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٧ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٨ .
٦) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٥ - ١٦ .

.../..

يوجد مثل اجتماع الضدين وكون الجسم في مكانين (٢) ـ ومعلوم معدوم لم يوجد قط ولا يوجد ابدا ، وهو مما يصح ويمكن ان يوجد مثل رد اهل المعاد الى الدنيا (٣) ـ ومعلوم معدوم في وقتنا هذا وسيوجد فيما بعد نحو الحشر والنشر ، والجزاء والثواب والعقاب وقيام الساعة (٤) ومعلوم معدوم يمكن عندنا ان يكون ، ويمكن ان لا يكون ولا يدرك ايكون ام لا يكون مثل قدرة الله تعالى في تحريك الساكن او تسكين المتحرك ، فنحن لا نعلم ايفعل هذا العمل ام لا ، لان امر الفعل عائد اليـــه .

والموجود هو الشيء الثابت الكائن [1] وهو على ضربين : قديم لم يزل ومحدث لوجوده اول ، والقديم هو الله تعالى [2] ، يتقدم الاشياء بلا غاية موجبة الى تقدمه ولا يصح عليه العدم وهو يتعالى عن ذلك . اما المحدث فهو الموجود عن عدم ويحدث المحدث من الغير والله تعالى هو محدث الاشياء .

وقد قسم الباقلاني المحدثات الى ثلاثة اقسام : جسم مؤلف ، وجوهر منفرد وعرض موجود بالاجسام والجواهر [3] . والعالم بجزأيه العلوي والسفلي مؤلف من اجسام مؤلفة من جواهر واعراض محدثة فهو محدث مثلها .

ويعني الباقلاني بتأليف الجسم [4] ان يكون مؤلفا من اجزاء كثيرة تنضم وتتألف ـ وقد تكون ابعاضه مجتمعة متماسة اومفترقة متباينة وهو حادث لحصوله مع الحوادث لا قبلها .

ويعني بالجوهر ان يقبل من كل جنس من اجناس الاعراض عرضا واحدا ومتى خرج عن خصائصه هذه لم يعد جوهرا . واما العرض فيعني به المعلوم الموجود الذي لا يصح بقاؤه زمانين [5] ، ويكون غالبا في الاجسام والجواهر ، ويبطل في ثاني حال وجوده ، فالحركة تسكن حين يحل السكون وهي عرض ، وكذلك يبطل السكون حين تحدث الحركة . وقد قال الله

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٥ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٦ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٧ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٧ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٨ .

../...

في كتابه (تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة) [١].

ج) كيفية حدوث المعرفة :

في نظر الباقلاني يحصل الاستدلال على العلم والمعلومات لدى العباد بطرق مختلفة ليس لها حصر، لان العقل الانساني يقسم الشيء في قسمين او اقسام . وهذه الاقسام لا يمكن ان تجتمع على الصحة والفساد ، فلابد ان تكون اما صحيحة او فاسدة [٢].
ويحدد الباقلاني الاستدلال : بعدم اجتماع النقيضين في شيء واحد فيخرج الشيء عن القدم والحدث معا ومتى اثبت الدليل على قدمه بطل حدثه ، وكذلك اذا ثبت حدثه بطل قدمه . ويحصل استدلال الشاهد على الغائب بالدليل ، فالشيء لا يكون جسما الا اذا كان مؤلفا ، والمؤلف هذا دليل او شاهد على المادة التي تألف منها الشيء ، ومن طرق الاستدلال ايضا النقل المتواتر ، اذ به يستدل على صدق الاخبار ، فالمعجز ظهر على النبي ونقل الينا خبره بالتواتر . ويحصل الاستدلال كذلك بادلة التوقيف والسمع : ومن هذه الادلة القرآن ، وسنة النبي واجماع الامة ، ثم القياس الشرعي وما يجري مجرى القياس من ضروب الاجتهاد لتحصيل النتيجة .

والباقلاني يعتمد على طرق استدلاله الاصولية هذه ليصل الى معرفة العلم والمعلومات ، وهي طرق خاصة لا تعتمد على طرق اخرى غير نابعة من اصول الدين مما دفع علي سامي النشار [٣] ان يصرح بجرأة ان الباقلاني كان "عدوا ممتازا للتراث اليوناني" [٤].

---

١) سورة الانفال : ٦٧ ، التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٨ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١١ .
٣) في كتاب مناهج البحث عند مفكري الاسلام (الطبعة الثانية ١٩٦٦) دار المعارف بمصر .
٤) مناهج البحث عند مفكري الاسلام : ٧٦ .

.../..

وجود الله وصفاته وتشعبها في الاسماء والاحوال :

أ) الله محدث العالم :

يعتقد الباقلاني ان لا بد لهذا العالم من محدث احدثه ، فالاشياء اجسام مؤلفة لا يمكن ان تفعل نفسها بنفسها وهي الى موات ، وفاعل العالم (١) قديم لا يجوز عليه العدم ولا يشبه الاشياء المحدثة لا في الجنس ، ولا في الصورة لان المحدث يفتقر في وجوده الى محدث وهكذا يتسلسل الى غير نهاية .

والمحدث واحد احد ، ليس من آخر معه (٢) ، وهو الله سبحانه وتعالى ومن يكون محدثا للاشياء قادرا عليها ، لا بد ان يكون حيا حكيما ، مريدا ، يحول الاشياء ويغيرها ثم يأتي بمثلها متى يشاء .

ب) الصفات الالهية : (٣)

وصانع الاشياء الحي في اعتقاد الباقلاني يعلم بها ، ويقدر عليها لان الانفعال المحكمات لا تصدر الا عن حكيم فلا يجوز عليه العجز والموت ، والخرس ، والسكوت والعمى والصم ، لانها آفات تدل على حدث الموصوف بها . اما القديم سبحانه فلا يجوز وصفه بشيء من هذه الاوصاف وهو تعالى ، حي ، عالم ، قادر ، مريد سميع ، بصير ، متكلم (٤) . والله تعالى موصوف ايضا بالغضب والرضى والحب والبغض ، والولاية والعداوة والشهوة ، وهي صفات ارادها للنفع والاضرار فقط (٥) .

ومن يكون حيا عالما قادرا ، سميعا بصيرا ، متكلما ، ومريدا فان له حياة وعلما ، وقدرة وسمعا ، وبصرا ، وكلاما ، وارادة ، وهي صفات غير موجبة له ان يكون كذلك لانه يتعالى عن العلل ويستنتج الباقلاني من ان معنى وصف القديم بانه عالم ، قادر زائد على وصفه " بانه شيء

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٤ ـ ٢٥ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٥ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٦ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٦ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٧ .

.../..

موجود ، وان هذا الوصف للقديم قد ينتفي عنه مع وجود نفسه وكونه شيئا موجودا "(١) .

ج) بين الاسم والمسمى : اسماء الله :

اخذ الباقلاني تعريف الاسم عن اهل الحق معتبر ان اشتقاقه من السمو وليس من السمة التي هي العلامة كما يعرفها المعتزلة (٢) ، واذا قال الباقلاني " بالسمو " فلانه مشتق من " سما يسمو " وليس من " وسم يسم " حتى اذا اتصف الاسم بالتصغير يقال " سمي " فلو كان من السمة لقالوا " وسيم " واذا كان الباقلاني قد اخذ تعريف الاسم عن اهل الحق ، فقد اعتمد على اهل اللغة في برهانه هذا . فسيبويه في كتابه : " الافعال امثلة اخذت من لفظ احداث الاسماء " اعتقد ان الاسم هو نفس الشخص الذي تقع منه الاحداث (٣) ، والباقلاني يعتقد ان الاسم هو المسمى نفسه او هو صفة متعلقة به ، فالاسم غير التسمية (٤) ، اما المعتزلة ، فتعتقد عكس هذا وهو ان الاسم غير المسمى ، وانه قول المسمي وتسميته يطلقه على من سماه (٥) ، الا ان الباقلاني يعتمد على قول الله تعالى ﴿ما تعبدون من دونه الا اسماء سميتموها انتم واباؤكم ما انزل الله بها من سلطان﴾ (٦) .

وعلى هذا فقد قسم الباقلاني اسماء الله في قسمين : ١ ـ ما يكون عائدا الى نفسه تعالى ، ويكون هو هو ككونه موجودا وشيئا وقديما وذاتا ، وواحدا وغيرها من الاسماء الراجعة الى ذاته ، ـ ٢ ـ وما يكون اسما وهو صفة حاصلة له تعالى ، وتنقسم هذه الصفة الى صفة ذات كعالم او صفة فعل كمحسن (٧) . ويعني الباقلاني بان الاسم والمسمى شيء واحد من حيث ان الاسماء تكون كثيرة في العدد ، وان الذات تكون واحدة . فالله تعالى " انه موجود وانه شيء ، وانه قديم ، وانه غير لما غاير وخلاف لما خالف "(٨) . وان الله تسعة وتسعون

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٩٨ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٢٥ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٢٨ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٢٧ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٢٧ .
٦) سورة يوسف : ٤٠ . التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٣٩ .
٧) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٣٠ .
٨) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٣١ .

.../..

اسما من احصاها دخل الجنة "(١) ، ثم من اسماء الله تعالى ، ما يشترك بها مع خلقه مثل حي ، عالم ، قادر ومنها ما لا يشترك مع خلقه ، فتجري عليه وحده مثل "الله الرحمن " ، "والاله" و"الخالق " (٢) .

ثم ان الباقلاني ينفي عن الاسم المعنى العام والخاص لان هذا المعنى يعني الذات ، فالذات لا يجوز ان تكون عامة وخاصة ، ويعتبر ان العام في التسمية وليس في الاسم ، لان التسمية تعم اشياء كثيرة تجري على سبيل واحد " فمعلوم " هي تسمية عامة لان "المعلوم " قد يكون موجودا او معدوما ، واعتبر الباقلاني مع الاشعرية ان " شيء " تسمية عامة (٣) . واما "قديم " فهي تسمية اخص من " شيء " .

د) بين الصفة والوصف :

الصفة في تعريف الباقلاني هي الشيء الموجود بالموصوف (٤) ، وتعريف الوصف هو اللفظ الواصف للموصوف وهو الله تعالى بانه : حي ، عالم ، قادر ، منعم ، متفضل (٥) ، وصفات الباري هذه لا تحدث له كما تحدث صفات المخلوقين - وقد اشرنا في فصل الصفات الالهية - ان هذه الصفات ليست ذات اعداد كصفاتهم ، وهي قديمة والله تعالى لم يتغير قبل وجودها ، ولا يتغير بوجودها (٦) .

ويقسم الباقلاني الصفات الى صفات ذات ، وصفات فعل فالله تعالى قد وصف نفسه بانه حي ، قديم ، عالم ، قادر وهي صفات ذات (وهذه الصفات لا يقال انها صفات الذات لنفسه ولا هي غير هذه الصفات (٧) ، وهذا ما سبب قول الباقلاني بالاحوال فقد قال بها ثم رفضها لانها تصبح قديمة مثل القديم ولا يجوز ان تكون مشاركة في القدم للقديم - اما صفات الفعل

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٣٢ ، حديث نبوي شريف .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٣٣ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٣٤ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢١٣ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢١٤ .
٦) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢١٤ .
٧) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢١٥ .

/٠٠ ...

فيميزها حين يصف الله تعالى نفسه بالخالق والرازق والعادل ، وهي غير صفاته التي هي الخلق والرزق والعدل ، وهي محدثة ، فصفات الذات الالهية غير صفات الافعال الالهية لانها تكون موجودة مع عدمها [١] .

وقد نفى المعتزلة ان يكون لله صفة واسما لاعتقادهم ان لا يجوز ان يكون القديم في القدم واصفا لنفسه واعتقدوا ان الله خلق كلامه واعتبروا ان الخلق هم الذين يجعلون لله الاسماء والصفات ، وهذا ما يتناقض مع اجماع اهل السنة والجماعة ومع رأى الباقلاني الذي خالف المعتزلة ووافق هؤلاء [٢] ، الذين اعتقدوا ان الله تعالى قد وصف نفسه بانه حي ، عالم ، قديم ، وجاء هذا الوصف في القرآن والسنة .

هـ) كلام الباقلاني في الاحوال ، ورده على ابي هاشم : [٣]

ينكر الباقلاني ان تكون دلالة الفعل على ان فاعله عالم ، قادر ، دلالة على حال له فارق بها من ليس بعالم ولا قادر ، وانكاره هذا يعتمد على اعتبار ان هذه الحال لا تخلو ان تكون معلومة او غير معلومة . فان كانت الحال غير معلومة ولا معروفة فلا سبيل الى معرفتها فمن كان ليس معلوما لا يصح ان يعلم ضرورة ، فليس من المفروض ان يعلم انه لزيد دون عمرو .

اما اذا كانت معلومة بالاستدلال دون الضرورة ، فهذا علم بها جملة فاذا استحال العلم بها جملة ، استحال العلم بانها لفلان دون فلان ، وانها معلومة بالاستدلال دون الضرورة [٤] .
ويرفض الباقلاني ان يكون كل من له الحال معلوم مباشرة لان العلم بالنفس لا يخلو على الحال من ان يكون محال ، ويقول اذا كان العلم علما بالنفس على الحال فهذا محال . واذا كان العلم علما بالحال فقط فالحال معلومة . اما اذا كان العلم علما لا بالنفس ولا بالحال فهذا محال سواء في رأيه هو او في رأى المعتزلة – الرد على ابي هاشم – واذا كان العلم علما بالنفس والحال فيوجب ان يكون معلومين ، فتكون الحال معلومة كما ان النفس تكون معلومة وهذا ما يبطل قول – ابي هاشم – في ان الحال غير معلومة .

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢١٥ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢١٧ .
٣) هو ابو هاشم عبد السلام بن ابي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي المتوفى ٣٢١ . وكان ابو هاشم معتزليا (انظر وفيات الاعيان لابن خلكان ٣ : ١٨٣) .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٠٠ .

../...

والباقلاني يوجب اذا كانت الحال معلومة ان تكون موجودة او معدومة ـ فهو يعتبر ان كل معلوم يكون اما موجودا او معدوما ـ فان كانت الحال موجودة فيجب ان تكون شيئا وصفة متعلقة بالعالم ، هذا الشيء او الصفة يكون علما او حالا ، واذا حصل الخلاف يكون في تسمية الشيء علما وحالا " ولا يكون في المعنى وعلى هذا اثبت الباقلاني صحة وجود الصفات [١] . اما اذا كانت الحال معدومة فيستحيل علينا ان توجب حكما . وان تتعلق بزيد دون عمرو ـ اى ان تتعلق بالقديم دون المحدث ـ [٢] .

ويرد الباقلاني على من افترض ان تكون الحال حالا للخالق سبحانه وتعالى فيقول اذا كانت حالا له لانها حال فقط ، يتوجب علينا قبول كل حال على هذا النحو ، فيكون حالا لـه . واما اذا كانت حالا له لحصولها على حال اخرى ، يتوجب في هذه الحال ان نوجد حالا للحال تكون لحال ثالثة وهكذا ندور ابدا بلا غاية ، وهذا ما يدعونا الى رفض هذا القول [٣] .

وفي افتراض آخر من الباقلاني فيما اذا كانت الحال حالا له لنفسه وثبوته ، فان نفسه قد توجد من غير ان توجب وجود الحال ، واما اذا كانت الحال حال له لا لنفسه ، ولا لعلة ، ولا لحال هو عليها ، ولا لامر يجب العلم به ، فان هذا يدعو الى بطلان سائر الاعراض ، لان كل متلون او متحرك او موصوف يتميز عن غيره بصفة هو عليها ، وبالتالي يعود الباقلاني الى اثبات الصفات ، وان الاحوال ما هي الا صفات [٤] لله تعالى .

و) كلام الباقلاني في صفات باعيانها :

١ ـ علم الله تعالى :

انكر المعتزلة وغيرهم في ان يكون لله علما يعلم به [٥] ، والباقلاني يثبت بان لله علما يعلم به برده على هؤلاء [٦] ، نافيا حجتهم في ان "العلم يكون عرضا حادثا

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٠١ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٠١ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٠٢ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٠٢ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٠٣ ، ٢١٠ .
٦) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٠٣ .

.../..

وغيرا له ، وحالا فيه وغير متعلق بمعلومين على سبيل التفصيل ، وان يكون واقعا عن ضرورة او استدلال ، وان يكوم مما له ضد ينفيه "[١] : وحجة الباقلاني ان ليس الشاهد والوجود دليل على وصف ما وصفه المعتزلة فقد يوجد انسان لا من نطفة ، وطائر لا من بيضة ، وان لم نشاهد ذلك ولم ندركه فيما يجرى امامنا . ثم هل يستطيع الواحد المحدث ان يحيل حيا عالما قادرا بنفسه ؟ ويقصد الباقلاني ان المحدث لا يستطيع ان ينفي وجود القديم تعالى[٢] ، واذا كان الباري عالما فهو ذو علم فمن يكون على هذا الوصف يتصف به ، لان كل عالم فهو ذو علم وكل ذي علم فهو عالم . والباري سبحانه عالم فهو ذو علم لان الشاهد يوجب ان يكون ذا علم[٣] .

٢) كلام الله تعالى : (في نفي خلق القرآن) :

لنفي خلق القرآن يعتمد الباقلاني على القرآن في آيات منه تعالى ﴿انما قولنا لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون﴾[٤] ، وهذه طريقة اهل السنة في الاستدلال وذلك باعتمادهم على النص الالهي للبرهان وكثيرا ما يلجأ الباقلاني الى هذه الطريقة ، ثم يعمد الى قياس الشاهد على الغائب في برهان ان القرآن كلام الله ، فالمخلوق في نظره ، لا بد ان يكون جسما قائما بنفسه اوعرضا مفصولا في غيره . والقرآن يستحيل عليه ان يكون جسما كما لا يجوز ان يكون قائما بنفسه ، ويكون كلاما ليس له متكلم . فالجسم في الجنس لا يختلف عن الاجسام الاخرى فلو كان الجسم كلاما لخالق او مخلوق لكان اشترك مع هذه الاجسام الاخرى في الكلام[٥] .

ويستحيل ان يكون القرآن عرضا ، فقد يكون الله سبحانه الفاعل له في نفسه او في غيره ، او لا في مكان . فالله لا يفعله في نفسه لانه ليس محلا للحوادث ، ولا يفعله في غيره لان ذلك يوجب ان يكون صفة او كلاما لمن خلق فيه ، فالقرآن يصبح صفة للمحل المخلوق فيه . ثم انه لا يخلقه لا في شيء لانه لا يجوز ان تحمل الصفات الصفات[٦] . ولما لم يجز ان يكون كلام الباري صفة لغيره وكلاما لغيره فانه لم يجز ان يكون مخلوقا في غيره . فلو كان مخلوقا

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٠٣ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٠٣ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٠٤ .
٤) سورة النحل : ٤٠ ، التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٣٧ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٣٧ .
٦) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٣٨ .

.../..

لوجب ان يكون عرضا والعرض يفني في ثاني حال حدوثه مما يوجب فناء كلام الله ويوجب ايضا ان لا يكون الباري تعالى آمرا بشيء ولا ناهيا عن شيء وهذا باطل في اعتقاد الباقلاني (١) .

من ناحية اخرى لو كان كلام الله مخلوقا لكان من جنس كلام المخلوقين وغير خارج عن حروف المعجم التي يعرفها المخلوق ولكان المخلوق يقدر على ايجاد مثله الا انه في رأي الباقلاني لا يستطيع وقد اتى بنص قرآني ينفي استطاعة المخلوق على ايجاد مثله ﴿قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل القرآن لا يأتون بمثله﴾ (٢) .

وتعتقد المعتزلة ان البشر قادرون على خلق ما هو افصح واحسن منه : من خطابة ونثر ، ونظام ، وقد يأتون بمثل القرآن لولا جهلهم بكيفية نظام مثله ، الا ان الباقلاني يقابل حجتهم هذه بان الخلق لا يقدرون على اكتساب العلم وترك الجهل لان الله الذي يخلق فيهم القدرة هو قادر على ان ينسيهم اياها فلا يستطيعون (٣) . ويعود الى النص الالهي ليثبت ان القرآن غير مخلوق لقوله تعالى ﴿الا له الخلق والامر تبارك الله﴾ (٤) . ولو كان مخلوقا لكانت الآية وردت "الا له الخلق والخلق" وهذا في اعتبار الباقلاني عي مستهجن (٥) والله تعالى اذا اراد ان يخلق شيئا فانه يقول له "كن" فلو كان كلامه مخلوقا لكان قائلا له "كن" كما اخبر عن فعل الخلق وقد احتجت المعتزلة على قوله "كن" فقد يكون قصد بها كلمة اخرى مجازا واتساعا الا ان الباقلاني يقول ان الامور التي وصفت بالكلام والقول والاخبار : منها ما هو حيوان يعلم بدليل قاطع انه غير ناطق فيجب صرف وصفها بالقول والاخبار والشكوى الى المجاز ، واما الباري سبحانه فهو حي لا يستحيل عليه ان يكون متكلما وقائلا ، فيصف نفسه على الحقيقة لا المجاز (٦) .

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٣٨ .
٢) سورة الاسراء : ٨٨ ، التمهيد طبعة ١٩٥٧ : ٢٣٩ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٤٠ .
٤) سورة الاعراف : ٥٤ . التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٤٠ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٤٠ .
٦) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٤٢ .

٠٠/٠٠٠

٣) ارادة الله (لجميع المخلوقات) :

يقول الباقلاني ان الله مريد وهو ﴿فعال لما يريد﴾ (١) • يريد الطاعة ويريد المعصية وسائر الحوادث لقوله تعالى ﴿لو شاء الله ما فعلوا﴾ (٢) • وقوله ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا﴾ (٣) • ويقول الباقلاني ان مما يدل على ان الله تعالى مريد لجميع افعال العباد ، فلو لم يكن مريدا للحقه العجز والتقصير كخلقه ، ويصبح بالتالي لا فرق بين فعل نفسه وفعل خلقه الذي جعله لهم كسبا (٤) • وهذا ما نفاه الباقلاني ، فالله يعلو عن ذلك (٥) ، وهو مريد لكل شيء ، وقد يأمر بما لا يريده ، وهذا ما اتفق عليه سلف الامة ، ومع ذلك يكون حكيما ، فقد امر ابراهيم بذبح اسماعيل ، ولم يرد ذلك منه ، فلو فعل ابراهيم وذبح اسماعيل لما كان لافتداء اسماعيل معنى (٦) • واذا كان الله تعالى لا يحب الفساد لانه لا يريده دينا وصلاحا ، فهو لا يحبه من اهل الصلاح ، وان احبه ان يكون من اهل الفساد (٧) ، لربما للموعظة والحكمة ، فانه اذا اراد الفواحش مع ذمه لها فقد ذم الذين يتهمون بالطهارة ويأتون فاحشة فهو تعالى يحب فيهم الطهارة ويرى بقذف المحصنات ليس صوابا ، فهذا اتهام فاحش من فاحشين لا هل الطهارة (٨) •

٤) الاستطاعة : (القدرة الالهية ، والقدرة الانسانية) :

يعتبر الباقلاني ان الانسان مستطيع لكسبه يعرف الفرق بين قيامه وقعوده وكلامه اذا كان واقعا بحسب اختياره ، وبين ما يضطر اليه من الزمانة والمرض والحركة ، فكسب الانسان ليس بنفسه ، ولكن بقدرة تحدث له • هذه القدرة تأتيه من الله تعالى ، فهو قادر على الحركة مرة ، وغير قادر عليها مرة اخرى (٩) ، والانسان يستطيع الفعل في حال اكتسابه القدرة ولا يقدر

---

١) سورة هود : ١٠٧ ، التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٨٠ •
٢) سورة الانعام : ١٣٧ ، التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٨٠ •
٣) سورة يونس : ٩٩ ، التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٨٠ •
٤) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٨١ •
٥) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٨١ •
٦) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٨٢ •
٧) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٨٤ •
٨) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٨٥ •
٩) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٨٦ •

٠٠/٠٠٠

عليه قبل حصول القدرة فيه ، فالقدرة على الكسب عرض من الاعراض لا يمكن ان يبقى زمانين . ولو وجد الفعل في ثاني حال حدوث القدرة لكان بقدرة معدومة وهذا محال ، وبالتالي يجوز ان يقع الحرق بحرارة معدومة ، ويجوز ان يفعل الانسان فعله قبل كون هذا الفعل فيصبح مستغنيا عن ربه ، فلا يعنه على الفعل ولا يحتاج اليه . واذا استغنى الانسان عن معونة الله في حال الفعل ، فهو يستغني عنها في حال عدم الفعل . ونستنتج ان الاستطاعة تكون مع الفعل للفعل وان القدرة هي حادثة مما يبطل التقدير في محلها [(١)] .

ثم ان القدرة الحادثة المحدثة المكتسبة لا يمكن ان يقدر بها الانسان على مقدورين فاذا قدر الانسان منا على الفعل قبل حال حدوثه فهو لا يقدر على تركه [(٢)] . كما لا يجوز ان يقدر الانسان على الشيء في كل مرة "فاذا قدر عليه في حال حدوثه" [(٣)] فهو لا يقدر في حالات ثانية وثالثة . والا جاز له ان يقدر قبل حدوث الفعل وبعده وفي كل وقت.

والباقلاني يعتقد ان الله يكلف العباد ما لا يطيقون . لقوله تعالى ﴿لا يستطيعون سمعا﴾ [(٤)] وقوله ﴿ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾ [(٥)] ، لقد امر الله بالعدل بينهن واوجبه مع اخباره ان المكلفين لا يستطيعون ذلك ، وان كان الباقلاني قد تناول هذه المسألة مع المعتزلة ـ وقد اشرنا اليها [(٦)] ـ الا انه لم يفصل الكلام كما فعل في هذا الفصل ، فهو يقسم الكلام في عدم الطاقة الى قسمين : الاول وقد قصد به عدم القدرة على الفعل ، والثاني قصد به عدم القدرة مع وجود ضدها من العجز ، وهذا لا يجوز عليه التكليف بينما الاول يجوز عليه ، وقد تكون الآية ﴿لا يستطيعون سمعا﴾ تنطبق على القسم الثاني والآية ﴿ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾ تنطبق على القسم الاول الذي اراده الباقلاني .

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٨٧ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٨٨ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٨٨ .
٤) سورة الكهف : ١٠١ ، التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٩٤ .
٥) سورة النساء : ١٢٩ ، التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٩٤ .
٦) اثار الاحدب رئيس معتزلة بغداد مسألة التكليف في مجلس عضد الدولة في شيراز ، وقد تناولتها بالبحث في مكان آخر من الرسالة .

.../..

وعلى هذا يعتبر الباقلاني ان الانسان ليس فاعلا للحوادث ، وان الله هو الذي يفعلها وبذلك يبطل القول بالتولد . فالالم الناتج عن الضرب والكسر الحادث عند الزج ، ، وذهاب الحجر في الاتجاه المعين عندما ندفعه ، حوادث ينفرد بها الله تعالى دون غيره وهي ليست متولدة عن افعال مكتسبة من العباد (١) . ويرفض الباقلاني ان تكون هذه الحوادث ناتجة عن افعال العباد كما يدعي المعتزلة ، لان هذا يتنافى مع فكرته الاشعرية ، فهو يعتبر ان الله تعالى حين يجري العادة ، فقد يتألم كثيرا من يتلقى ضربا يسيرا ، وقد لا يتألم من ضرب ضربا شديدا (٢) . والمعتزلة التي تدعي ان الحوادث من فعل الانسان تعتقد ان من يتلقى ضربا يسيرا يشعر بألم يسير ، ومن يتلقى ضربا شديدا يشعر بألم شديد . وان جري العادة من الله تعالى هو افساد للادلة فطريقة الباقلاني الاشعرية في الاستدلال قد تخرج به على الدليل العقلي الصحيح . الا ان الباقلاني يعتبر ان جري العادة من الله تعالى ليس افسادا للادلة ولا هي خروج على الدليل العقلي بل ان الاعتماد على دلالة الاعراض هو اعتماد فاسد وليس من الدليل العقلي لان الاعراض تفسد ولا يجوز تعاقب الواحد منها الى الاخر والا اوجبوا — ويقصد المعتزلة — حدوث الموت عند الضرب وقد لا يحدث واللذة عند الحكة وقد لا تحدث وكذلك الشبع والري والاسكار (٣) .

لقد ثبت لدى الباقلاني عقليا ان الله قادر على فعل جميع الافعال التي يكتسبها العباد فمن غير المعقول ان يكون الله غير قادر على جميع الافعال التي يكتسبها العباد . ولو لم يقدر عليها مع قدرته على مثلها لوجب عجزه عنها ، فافعال الخلق مقدورة له وحين تحصل تكون افعالا له . (٤) ومما يدل ايضا على ان افعال العباد مخلوقة من الله تعالى لوقوعها على احكام واوصاف وحقائق لا يعلمها العباد فهي اعراض واجناس مختلفة ، وادلة على ما هي عليه وموجودة على صفة دون صفة (٥) . يقول تعالى ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ (٦) .

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٢٩٦ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٠٠ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٠١ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٠٣ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٠٣ .
٦) سورة الصافات : ٩٦ ، التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٠٤ .

.../..

واما الانسان في رأي الباقلاني "لا يقدر على الفعل الا في حال وجوده "ولا يجوز ان يكون فعل الانسان مقدورا من الله والانسان معا ، يفعله تارة ويتركه اخرى كذلك الله تعالى يفعله تارة ويتركه اخرى . لان من يقوم بالفعل لا يتركه فان تركه لا يكون موجودا (١) .

ولذلك ليست افعال العباد خلق لهم لان الله هو الخالق لها وهو خالق قصد العباد اليها وكذلك هو التارك لخلقها في حال انصرافهم عنها واعراضهم عن القصد الى اكتسابها . وهذا يكون هو الآمر الناهي يعاقب ويثيب . فالخلق مستحيل من العبد وان كان لا يستحيل عليه الكسب ، فالعبد يكتسب ما نهي عنه وما امر به (٢) .

ويعرف الباقلاني الكسب " بتصرف في الفعل بقدرة تقارنه في محله فتجعله بخلاف صفة الضرورة من حركة الفالج وغيرها "(٣) . فحركة اليد المختارة تختلف عن حركة الارتعاش من الفالج فالاولى حركة كسب والثانية حركة ضرورة .

ز) الكلام في قضاء الله تعالى :

١) في المعاصي :

يقول الباقلاني ان الله قضى المعاصي وقدرها بمعنى انه خلق العصيان وجعله بحسب قصده .(٤) .

٢) في الارزاق :

يعتقد الباقلاني مع الاشعرية بان الله يرزق الحلال والحرام لقوله تعالى ((الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم))(٥) . ورزقه الحرام بان يجعله غذاء للابدان وقواما للاجسام لا على معنى التمليك والاباحة لتناوله (٦) .

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٠٦ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٠٧ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٠٧ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٢٥ .
٥) سورة الروم : ٤٠ ، التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٢٨ .
٦) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٢٨ .

.../..

٣) في الاسعار :

ويعتقد الباقلاني ان الغلاء والرخص في الاسعار من الله تعالى الذي يخلق الرغبة في الشراء . فالله طبع الخلق على حاجتهم الى تناول الاغذية ، فالغلاء والرخص يعود الى مدى استهلاك الناس للاغذية وليس عائد الى السلطان فلو ماتوا من قلة الغذاء لا يكون السلطان اماتهم وانما الله الذي طبع الخلق على احتياجهم الى الغذاء .(١)

٤) في الآجـال :

والانسان في اعتقاد الباقلاني يموت باجله المقدور له لقول الله عز وجل ﴿فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾(٢) . واجل الموت هو وقت الموت كما ان اجل الدين هو وقت حلوله (٣) .

٥) في الهدى والضلال :

وكذلك يعتقد الباقلاني بان الله يهدي المؤمنين ويضل الكافرين ، فيخلق بالمؤمنين هداهم ، وينور بالايمان قلوبهم كما يخلق بالكافرين ضلالهم فلا يوفقهم ، ويضيق عليهم صدورهم ويعدم بهم القدرة على الاهتداء ﴿ويضل الله الظالمين﴾(٤) . وليست الهداية في الحكم والتسمية فلا يمن المهتدون على انفسهم بهذه المنة ولو كانت منة لكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان يمن بها عليهم كما يمن الله بها عليهم (٥) .

٦) في اللطف الالهي :

ويعتقد الباقلاني ان في قدرة الله تعالى لطفا لو لطف بها على الكافرين لامن من في الارض على ان يجعلهم مؤمنين وهو قادر على ان يجعلهم كافرين . ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا﴾(٦) .

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٢٠ .
٢) سورة الاعراف : ٣٤ ، التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٣٤ .
٣) التمهيد طبعة ١٩٥٧) : ٣٣٢ .
٤) سورة ابراهيم : ٢٧ ، التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٣٥ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٣٥ .
٦) سورة يونس : ٩٩ ، التمهيد (الطبعة ١٩٥٧) : ٣٣٨ .   ../..

٧) في التعديل والتجويــــر :

ويجوز على الله ان يؤلم الاطفال من غير عوض وان يأمر بذبح الحيوان وان يؤلمه دون نفع يعود الى الحيوان ، وان يسخر بعض الحيوان لبعض وان يكلف عباده ما لا يطيقون . وهذا ما يسميه الباقلاني حكمة من الله ارادها فكانت . ويسمي فعله عدلا وان كان العباد يرون في هذه الافعال قبحا ، لان الله تعالى نهانا عن فعلها فجعلها قبيحة فيما لو قام بها العباد (١) .

والله تعالى يستطيع ان يؤلم سائر الانبياء وينعم سائر الكفرة والعاصين وقد يحصل هذا قبل نزول النبوة عليهم وقبل ارسال الرسل ولكن الله تعالى لا يعذب المؤمنين لخبر ورد على لسان النبي صلى الله عليه وسلم ولاجماع المسلمين "في اخبار علموا قصده به ضرورة الا ان ذلك لا يكون" (٢) .

ولا يجوز على الله الكذب ، فالصدق من صفات نفسه فمن يتصف بانه قادر عالم وهذه من صفات النفس استحال عليه العجز والجهل والكذب ... وقد يبيح بالكذب لتخليص النفس فمن كان في دار حرب وكان خائفا يباح له (٣) .

ح) منزلة المخلوق عند الخالق :

١) في معنى الدين :

ومعنى الدين عند الباقلاني يكون بمعنى الجزاء او بمعنى الحكم او بمعنى الدينونة بالمذاهب والملل الاخرى او بمعنى الانقياد والاستسلام لله عز وجل (٤) . والمتدين هو المنقاد المستسلم لله تعالى .

٢) في معنى الايمان :

يعرف الباقلاني الايمان بالتصديق بالله تعالى وهو العلم به . والتصديق يوجد بالقلب وقد اعتمد على اللغويين في تحديده للايمان وعلى النص الالهي لتحديد معنى تصديق وما

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٤١ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٤٣ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٤٣ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٤٤ .

.../..

انت بموءمن لنا ولو كنا صادقين﴾[١] ، اى ما انت بمصدق لنا ، فمعنى الايمان في الشريعة هو معنى الايمان في اللغة لان الله تعالى ما غير لسان العرب ولا قلبه[٢] .

٣) في معنى الاسلام :

والاسلام في تعريف الباقلاني هو الانقياد والاستسلام ، والايمان خصلة من خصال الاسلام ، وكل ايمان اسلام وليس كل اسلام ايمانا ، لقوله تعالى ﴿قالت الاعراب آمنا ، قل لم توءمنوا ولكن قولوا اسلمنا﴾[٣] .

٤) في معنى الكفر :

والكفر عند الباقلاني هو ضد الايمان وهو الجهل بالله عز وجل والتكذيب به ، فعبادة الافلاك والنيران واستحلال المحرمات وقتل الانبياء وماجرى مجرى ذلك مما ورد به التوقيف وصح الاجماع على انه لا يقع الا من كافر بالله[٤] .

٥) في تسمية الفاسق الملي :

ويسمى الباقلاني الفاسق الملي موءمنا ففسقه لا يتضاد مع ايمانه ، لان عمل الجوارح غير الاعتقاد بالقلب ، ولان الشئين انما يتضادان في محل واحد ، فالفاسق هو الذى يصدق بالله ويوءمن به ويعزم على معصيته ، كما انه يصدق بالنبي صلى الله عليه وسلم ولا يطيعه[٥] .

٦) في الوعد والوعيد :

ويجوز على الله في رأى الباقلاني ان يعفو عن جميع العصاة والكفرة ويدخلهم الجنة فافعال العباد جعلها الله تعالى دليلا على ما قسمه لهم في الجنة او في النار ، ويحق له

---

١) سورة يوسف : ١٧ ، التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٤٦ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٤٦ .
٣) سورة الحجرات : ١٤ ، التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٤٧ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٤٨ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٤٩ .

٩ .../..

ان يعاقب الكافر الا انه اذا تفضل وتركه فهو تفضل منه بانعام غير مستحق ، فالله يحسن العفو عن الذنب وقد امرنا به وحضنا عليه ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾ (١) . الا ان الله تعالى لا يعفو عن الكافرين لجزم النبي صلى الله عليه وسلم بالاخبار : ان الكافر مصيره الى النار . ولاجماع المسلمين الذين لا يجوز عليهم الخطأ : ان الله لا يعفو عن الكافرين . وقد تواترت الاخبار في ان جميع الكفار في النار خالدين فيها (٢) واما مقلد الكافر في اعتقاد الباقلاني يكون كافرا او غير كافر ولاثبات كفره او ايمانه تستدل بالنظر دون الترقيف على ما اتى به النبي والخبر الذي اجمع عليه المسلمون (٣) . واما في المذنب من اهل ملة الاسلام فيجوز العفو عنه من الله ومن غيره ، وان لم يرد توقيف اضطرنا اليه ﴿ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ (٤) .

٧) في الشفاعة :

ويجوز الغفران لعصاة اهل الملة من الاسلام وقد ورد في الاخبار الثابتة في شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في اهل الكبائر "ادخرت شفاعتي لاهل الكبائر من امتي" وقد روى هذا الخبر عن النبي مالك بن انس وجابر بن عبد الله ، ورواه عبد بن هلال وغيرهم (٥) .

ويقول الباقلاني ان الاخبار في الشفاعة اكثر من ان يؤتى عليها وهي كلها متواترة متوالية على خروج الموحدين من النار بشفاعة الرسول وان اختلفت الفاظها . وقد اطبق سلف الامة على تسليم هذه الرواية وصحتها مع ظهورها وانتشارها والعلم بانها مروية في الصحابة والتابعين (٦) . وان قبول التوبة من الله تعالى تفضل على العباد . وهذا الفضل له ان يفعله وله ان لا يفعله .

---

١) سورة آل عمران : ١٣٤ ، التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٥١ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٥٢ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٥٣ .
٤) سورة النساء : ٤٨ ، التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٥٣ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٦٥ .
٦) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٦٧ .

/.. ...

وقد اورد رأي المعتزلة في الشفاعة فاعتقادها غير هذا الذي يعتقد الباقلاني "لانها توجب قبول التوبة على الله وتعالمه وتجوره في ردها وترك قبولها ، والعقاب على ما هي توبة منه"(١) .

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٧٤ .

٩ ... /..

٢) في اثبات وحدانية الخالق : الرد على الملل اللاموحدة :

أ) الصانع ليس طبيعة من الطبائع :

فكما ان لكل معلول علة ، كذلك للعالم صانع صنعه ، وقد رفض الباقلاني ان يكون صانع العالم طبيعة من الطبائع [(١)] ، لان هذه الطبيعة قد تكون معدومة ، او تكون معنى موجودا . فان كانت معدومة لا يمكن لها ان تحدث شيئا ، فالموات لا يأتي بشيء ، واما المعنى الموجود فقد يكون موجودا عن طبيعة قديمة مثلها [(٢)] ، وهذا مرفوض من الباقلاني ، لان العالم حادث لا يشترك في القدم مع القديم .

واذا كان عن طبيعة حادثة ، فلا بد ان يكون العالم حادثا عن طبع او عن غير طبع ، فحدوث العالم عن طبع [(٣)] ، يعود الى كون الطبيعة حادثة عن طبيعة اخرى . وهذا البرهان لا يقر وجود العالم ، فيتحول وجوده الى ما لا غاية له ، وهذا يناقض ما اتى به تعالى من ان وجود العالم كان لغاية . اما حدوث العالم لا عن طبع فيبطل القول بالطبائع [(٤)] ، ففعل الطبائع لا يؤثر على الاشياء لانه حادث مثلها ومن كان حادثا لا بد ان يكون حادث عن قديم يستأنف الافعال بعد ان لم تكن .

ب) الصانع ليس فلكا من الافلاك : الرد على المنجمين :

يرد الباقلاني على المنجمين القائلين ان صانع العالم هي الافلاك السبعة : الشمس والقمر ، والمريخ ، والمشتري ، وزحل ، وعطارد ، والزهرة ، فالافلاك السبعة حادثة كسائر اجسام العالم ، ويجوز عليها الحد والنهاية ، والتأليف والسكون والحركة [(٥)] . ولا يجوز عليها القدم كما لا يجوز على سائر الاجسام ، لانها حادثة والحوادث لها اول وهي تنتهي ولا تستطيع ان تفعل في غيرها شيئا ولا توجد افعالها الا في نفسها [(٦)] . لذلك ليست هذه الافلاك حادثة بلا محدث

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٤ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٤ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٦ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٣٧ ـ ٣٨ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٤٨ .
٦) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٤٩ .

٠٠/ ٠٠٠

بل ان لها محدث مدبر (١) .

ويرد الباقلاني على المنجمين الذين اعترفوا بحدوث الكواكب ، ولم يعترفوا بعجزها ، نافيا قدرة الكواكب وحركتها ـ فهي ميتة ليست حية غير قادرة ، ولا قاصدة الى التحرك والانتقال من برج الى آخر لان صانعها هو الذى يخلق السير عندما تتقطع مسافات البروج بينها (٢) ويعتقد الباقلاني ان ليس من استدلال على حياة الفلك بكبره وضخامته فعظم الجسم وعلو مكانه وشدة اشراقه لا يدل على كونه حيا . وكذلك ظلمة الجسم وصغر شأنه لا يدل على كونه ميتا كالذروالبق (٣) .

والكواكب هذه لا تؤثر على عالمنا في اعتقاد الباقلاني ـ مع ان العلم اليوم اثبت ان للكواكب تأثير على بعضها فقرب الشمس او بعدها لا يدل على ان الحرارة والبرودة ناتجة عن هذا القرب او البعد . كما ان التسخين والتبريد غير ناتج عن مجاورة النار والثلج لها وقد عاد بهذا الى فكرة ان الله تعالى قادر على ان يجعلها كذلك اولا يجعلها . فالكواكب لا تؤثر على الحوادث الارضية "لا على حسب تعلق الحكم بالعلة ونسبته اليها وذلك ككون العالم عالما" (٤) .. ولا "على حسب تعلق الفعل المتولد بما ولده من الاسباب" (٥) . فالكواكب حادثة من خالق احدثها لا يدل بها على ما يحدث في العالم في اوقاته ، والله تعالى اخبر "عن كذب مدعي ذلك" (٦) ، فالله هو "المستبد بعلم ما كان وما يكون" (٧) . قال تعالى (وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم) (٨) . والله تعالى جعل للانبياء فقط علم الاطلاع ، فلا احد يطلع على علم الله تعالى الا من اوحى اليه به ، او من ارشده على ذلك ، فالله يعلم علم ما يكون وما كان وكل علم .

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٤٩ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٥١ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٥٣ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٥٥ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٥٦ .
٦) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٥٨ .
٧) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٥٨ .
٨) سورة آل عمران : ٤٩ ، التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٥٨ .

.../..

ج) الصانع واحد لا اثنان : الرد على المجوس :

لا ينكر الباقلاني وجود النور والظلام من جملة العالم ، وانما ينكران يكون النور والظلام قديمين (١) ، او فاعلين بالطبع والاختيار (٢) . وينكران يكون اصل الاجسام كلها من النور والظلام ، فالنور والظلام ليسا من اشخاص العالم ، واجسامه القائمة بانفسها لانهما غير قائمين بانفسهما وهما من جملة الاعراض (٣) . ويعتبر الباقلاني ان الاجسام كلها من جنس واحد من حيث ان كل واحد منها يسد مسد الاخر وينوب منابه ، ويجوز عليه من الوصف مثل ما جاز على غيره من الحركة والسكون والاجتماع والافتراق والزيادة والنقصان (٤) .

والباقلاني يأخذ على المجوس الذين يعتقدون ان النور هو الله وهو قديم وان الظلام هو الشيطان وهو محدث (٥) . كما يأخذ عليهم عدم بيان وجود الشيطان بحجة عقلية مقنعة ، "افمن محدث حدث ام لا من محدث" (٦) . اذ كيف يكون المحدث حكيما غير سفيه . وهذه الفكرة تعارض من يقول ان الشيطان حدث من شكة شكها بعض اشخاص النور لان الشدة او الفكرة او العقوبة اذا اراد النور ان يعاقب بها — لم يعد نورا — فان حصولها يعتبر آفة من الآفات التي تدل على نقص من تجوز عليه فكما ان الله سبحانه لا يجوز عليه الجهل والموت والغفلة والنوم . وغير ذلك من الآفات فكذلك لا يجوز عليه الشكة او الفكرة او العقوبة واذا حصلت هذه الصفات فان الله تعالى عن هذه الآفات — يجوز ان يخلو من الحياة والموت والقدرة والعجز (٧) . والباقلاني ينزه الله عن الآفات فهو الذي يحدث الشيطان كما يحدث سائر الشرور وهو حكيم غير سفيه (٨) .

الكلام على سائر الملل الموحدة :

أ) تنزيه الواحد : الرد على النصارى :

يرفض الباقلاني فكرة النصارى في ان الاشياء الموجودة : اما ان تكون جواهرا او اعراضا

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٦١ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٦٢ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٦١ — ٦٢ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٦١ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٧٠ .
٦) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٧٣ .
٧) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٧١ .
٨) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٧٣ .

.../..

وان الجوهر الذى يصح منه الفعل ، وان العرض ما يمتنع منه الفعل . والموجود الذى تصح منه الانفعال والمسمى بالجوهر هو الله تعالى ، ويقول ان ليس من الضرورى ان توجد الاشياء في الشاهد على هذه الصفة فتوجب بالتالي الحكم على الغائب بمجرد الشاهد [1] .

ثم ان اعتماد النصارى على فكرة الجوهر والعرض في البرهان على وجود الله يؤدى الى انه لا جسم الا وبعده جسم وفوقه جسم وتحته جسم ، والنتيجة تصبح كالبرهان على ان لا طائر الا من بيضة ولا بيضة الا من طائر ، وهكذا الى ما لا نهاية [2] . وقد قسم النصارى الجوهر الى شريف وخسيس ، فالخسيس هو الذى يقبل العرض ويتحيز ويشغل المكان ، والشريف لا يجوز عليه هذه الاوصاف . فالله تعالى عندهم جوهر غير متحيز وغير قابل للاعراض [3] . وهو الجوهر الشريف .

وتفسير النصارى هذا لم نجد له ردا من الباقلاني ، كما انه في المقابل ، لم يجد الباقلاني تفسيرا من النصارى في جمع الجوهر العام والاقانيم الثلاثة ويقول : "ان جاز ان يكون الرابع من الثلاثة ثلاثة فقط فما انكرتم ان يكون الروح والعلم من الاله الموجود واحدا فقط . وان يكون اقنوما واحدا ، ولا يكون الثاني والثالث شيئا يزيد على الواحد [4] ".

ولا يرى الباقلاني كما في اعتبار بعض النصارى ان الاقانيم من الجوهر كالصفات الالهية من الله ، فكما ان يد الانسان من الانسان مخالفة له وغير موافقة له . كذلك الاقانيم من الجوهر [5] . ويقول ان الصفات التي هي اقانيم لا يمكن ان يقال انه هي ، وبالتالي لا يمكن الا ان يبقى الجوهر جوهرا والاقانيم الثلاثة ثلاثة مما يوجب اربعة معان : الجوهر وثلاثة خواص له ، وهذا تراه للتثليث [6] .

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٧٥ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٧٦ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٧٨ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٨٣ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٨٥ .
٦) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٨٦ .

.../..

ويتساءل الباقلاني في معنى الاتحاد وفي كيفية تمامه ، وهل كان موجودا في حال وقوع قتل المسيح وصلبه ؟ بينما يعتبر النصارى ان الاتحاد يتم بين اقانيم : الوجود والعلم والحياة ، وهو "فعل من الافعال صار به المتحد متحدا والمسيح مسيحا "(١) . الا ان الباقلاني يعجب للقتل الذي يقع بابن الله القديم ، فلم يجد لهذا القتل تعليلا في ذاته ، وهو المسلم الذي يؤمن بغير هذا الايمان ، كما انه لم يجد حجة من خصمه يقنعه بها ، وهو الذي يعتقد بالقدرة الالهية التي تتدخل في الاشياء فتغيرها من حال الى حال . والمسيح بطبيعتيه : اللاهوتية والناسوتية ، يقتل ويصلب ، ويجوز عليه الموت فاذا "صار الابن عند القتل ميتا لم يجز ان يكون في تلك الحال الها ، لان الاله لا يكون ميتا ولا ناقصا "(٢) . ولما لم يجد فكاكا من وجود الاتحاد عند القتل والصلب ، يحاول الباقلاني ان ينزه المسيح عن هذه الآفات وذلك لمكانته المقدسة لديه فالمقتول يجب الا يكون هو المسيح ، لان الجسد عند مفارقته الاتحاد ليس جسد المسيح ، وان المقتول المصلوب الواقع عليه الموت والدفن انسان (٣) .

واما حجة النصارى في ان كلمة الله اتحدت بجسد المسيح فيقارنها الباقلاني بحجة اخرى ـ اذ ليس المسيح في اعتقاده هو الله ـ وان اتى الله تعالى على يديه بالمعجزات التي لا يقدر البشر على مثلها "كاحياء الموتى ، وابراء الاكمة والابرص (٤) ، فموسى وابراهيم وغيرهما من الانبياء اتى الله على ايديهم بالمعجزات وايدهم من عنده ، ولم يدعوا الربوبية ، فكما ان موسى يدعو ربه ، ويرغب اليه في ان يظهر ذلك على يديه ، كذلك كان حال "عيسى فانه كان يرغب الى خالقه ، وربه ومالكه في ان يظهر الآيات على يديه "(٥) . وقد نطق الانجيل بذلك .

واما اسم "مسيح" فلا يعني عند الباقلاني انه دليل على لاهوته وناسوته كما ادعت النصارى ، فقد يكون اسم موسى دليلا على معنيي اللاهوت والناسوت والباقلاني في حججه هذه يفعل فعل النصارى ، فلا يعتمد على اكثر من المقابلة بينها ولا يزال ينتقل من حجة الى اخرى معترفا بنبوة الانبياء الذين جاؤوا قبل عيسى وراميا من وراء اعترافه هذا ان يثبت نبوة عيسى

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٩٢ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٩٧ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٩٨ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٩٨ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٩٩ .

.../..

ليثبت بالتالي نبوة محمد وهذه نظرة اسلامية ، تنفي التثليث عن الاله وتنزه المعبود من الآفات الدنيوية وتجعل من عيسى نبيا كغيره من الانبياء والرسل (١) .

ب) في وجوب ارسال الرسل : الرد على البراهمة :

يرد الباقلاني على البراهمة الذين جحدوا على الله تعالى ارسال الرسل ، اذ ليس صحيحا في اعتقادهم ان يبعث الله رسولا الى خلقه ، يكون من جنس المرسل اليه ومن جوهره فلماذا يتفضل الواحد على الآخر (٢) . وان رفض دعوة هؤلاء فلان الله تعالى يفضل بعض خلقه على بعض ويرفع بعضهم دون بعض ، وتفضيله هذا ليس ظلما للبعض ولا جورا لهم ، بل من الحكمة ان يكرم الله من يشاء من خلقه (٣) .

وان كان سبحانه " يخلق في بعض عباده الجهل ، وفي بعضهم القوة والتمكين ، وصحة الآله ، وكمال العقل ، والتحيزة والحس " (٤) . فالعقل لا يحل محل الرسل كما يدعي البراهمة وان هو الطريق " الى العلم بقبح فعل او حسنه " (٥) فهذا الادعاء مرفوض من الباقلاني لاعتقاده بان الشرع واجب في حكمه لاثبات الافعال بدل العقل ، كما ان الاعتماد على العقل وحده كطريق الى العلم في حال عدم وجود الرسل مرفوض من الباقلاني ايضا لاعتقاده اننا لا نستطيع معرفة الاحكام فيما اذا كانت قبيحة او حسنة " الا بالشرع دون قضية العقل " (٦) . وقد اجاب الباقلاني على البراهمة اعتراضا لدعوتهم هذه ، التي تنفي ارسال الرسل على الله ، فانه تعالى يتحتم عليه ان لا يفعل شيئا لا لجلب منفعة ، او دفع مضرة ، او داع بدعوة الى فعل هذا ، وبالتالي فهو جسم مؤلف ذو حيز ، يقبل العرض وهو في مكان دون مكان . وليس هو شيء ، ولا فاعل ، ولا عالم ، ولا حي قادر ، فهذه الدعوة التي تجعل من الله جسما مؤلفا ذو حيز يقبل العرض وينتقل في المكان هي دعوة الدهرية فاذا قبلها البراهمة لحقوا بهم واذا رفضوها نقضوا استدلالهم بمجرد الشاهد والوجود " (٧) .

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٠٠ ـ ١٠١ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٠٤ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٠٥ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٠٦ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٠٥ .
٦) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٠٥ .
٧) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٠٧ .

/٠٠ ...

ثم انه اذا كان الاعتماد على العقل دون السمع ، فكيف يدرك العلم بوجوب الصلاة ، وتقديرها والزكاة ونصابها ، "وحسن ايجاب الدية على العاقلة ، وتقبيل الحجر ، والسعي بين الصفا والمروة وقبح شرب الخمر ، والوطء بغير عقد ... وقبح ترك الصلاة "(١) . فهذا لا سبيل الى وجوب معرفته بالعقل بل بالسمع . لان به يكشف عما ينال من الثواب او العقاب ، وبه يحذر الله عز وجل الجهل بوجوده "وترك النظر فيما يؤدي الى معرفته على من كلفه ذلك من خلقه"(٢) .

ج) في وجوب نسخ الشرائع : الرد على اليهود :

يرى الباقلاني ان اليهود افترقوا على ثلاث فرق : ١ ـ الشمعنيون فرقة تقر نسخ الشرائع ، وارسال نبي بعد موسى لجواز هذا النسخ عن طريق العقل ، انما تمنع هذه الفرقة نسخ شريعتها على نبي بعد نبيها وذلك لاعتقادها بتوقيف هذا النسخ من جهة الله جل اسمه (٣) . ٢ ـ وفرقة العنانية وهذه الفرقة تعتبر ان من المحال نسخ الشرائع سواء كان النسخ من جهة العقل او السمع لاعتمادها على السمع الذي ورد ان نسخ الشرائع محال من الجهتين (السمع والعقل) . ٣ ـ واما الباقون وهم الفرقة الثالثة ـ في رأي الباقلاني ـ فتعتقد نبوة كل من يأتي بعد موسى ، وان عيسى ومحمد نبيان صادقان ، وانما ارسلا الى قومهما ، ولم يرسلا بتبديل شريعة موسى (٤) .

فالفرق اليهودية الثلاث قد تختلف على من جاء بعد موسى فمنها من يقر ومنها من لا يقر بنبوة عيسى ومحمد والانبياء الاخرين ، بينما تؤمن هذه الفرق جميعها بنبوة موسى ، وبما ظهر على يديه من الاعلام المعجزة : كفلق البحر ، واخراج اليد بيضاء ، وغير ذلك من اعلامه (٥) . وقد تناقل اليهود اخبار هذه المعجزات خلفا عن سلف ، مما اوجب صحتها بالرغم من انكار المجوس والبراهمة لها وانكارهم بالتالي نبوة موسى ، الا ان اعتبار الباقلاني للخبر صحيح اذا استوى اوله وآخره ، ووسطه وطرفاه ، مما يثبت صحته ، ويوجب العلم بصدق نقلته ، وان خالف في ذلك

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٢٤ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٢٦ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٦٠ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٦٠ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٦١ .

../...

مخالفون (١) . وعلى هذا يقابل الباقلاني حجة اليهود في اثبات نبوة نبيهم بحجة له في اثبات نبوة محمد ، والحجة واحدة من حيث البرهان على النبوة ، فكما ان المعجز ظهر على يد موسى وتناقلته الاخبار وتحدى به ، فكذلك النبي محمد ظهر المعجز على يديه ، وتناقلته الاخبار وتحدى به (٢) وكما اقر الباقلاني بنبوة موسى ليثبت نبوة محمد ، عاد واثبت نبوة عيسى – وقد ذكرنا هذا في حينه – وان انكرها بعض اليهود كما انكروا نبوة محمد ، الا انه يأخذ على النصارى القول بالتثليث ، كما اخذ على اليهود القول بالتشبيه والتجسيم (٣) ، فتثليث الآله ينفيه الباقلاني ، لان الاسلام لا يعترف به ، وينفي تشبيه الآله وتجسيمه ، ويعتبر ان النصارى تأولت التثليث فأخطأت ، وضربت للحلول والاتحاد والجوهر والاقانيم : الامثال فأخطأت ايضا ، ولكنهم – والرأي للباقلاني – نقلوا اخبارا صحيحة عن المسيح في ابراء الاكمة والابرص .

وقد رأى الباقلاني وجوب تصحيح اعلام النصارى لاعتماده على فرقتي العيسرية والدروسية من فرق النصارى الذين يعتقدون بان عيسى هو ابن الله على جهة الاختصاص والاكرام (٤) ، كما يرى وجوب تصحيح اخبار اليهود المتناقلة عن موسى ، فالمنقول لا يمكن ان تقبل ما تناقلوه لترلهم بتشبيه الله وتجسيمه ، فالله تعالى لا يمكن ان يكون جسما ذو صورة متناهة محدود ، وليس هو كما في نظرهم – ابيض الرأس واللحية ، وليس هو مهموما محزونا لما عليه العباد من الظلم والفساد في الارض (٥) .

اما شروط النقل المتواتر عند اليهود فهي ان : لا يحصر النقلة عدد ، وان لا يحويهم بلد .. وان يتغاير آباؤهم ، وان تختلف انسابهم ، وتتفرق دواعيهم وهممهم واغراضهم وان تختلف مللهم ودياناتهم ، والا يحملوا على نقلهم الاخبار بالسيف ، ولا يضمنوا الى خبرهم ما تحيله العقول – وان يكونوا في دار ذلة ، وان تؤخذ منهم الجزية . (٦) فهذه الشروط ينقضها الباقلاني ، لان الاخبار في رأيه قد تكون غير صحيحة اذا كان ناقل الاخبار في دار ذلة ، فمن شروط الخبر المتواتر

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٦٢ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٦٢ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٦٥ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٦٦ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٦٦ – ١٦٧ .
٦) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٧٣ .

../...

عنده هـ ان لا يكون ناقله في دار ذلة . وعليه فنقل المسلمين والنصارى لاعلام موسى لا يكون عن اليهود ، بل عن انفسهم لاخذهم الاعلام بالتالي عن عيسى ومحمد اللذين لم يأخذا عن اليهود (١) .

اما تغيير الآبار ، واختلاف الانساب ، وتباعد الاوطان والديار فانه ايضا لا معنى له ، فقد يرد الينا خبر صحيح عن مشاهدة شاهدها اهل بلدة واحدة ، وخبر خبر به ابناء اب واحد ـ والمعنى ورود الخبر عن عائلة واحدة ـ واما اشتراط اليهود الا يضموا الى خبرهم ما تحيله العقول ، فشرط باطل يرفضه الباقلاني معتبرا ان اهل التواتر لا يجوز وقوع الكذب منهم (٢) ، واما الشريعة في رأيه فلازمة ، ما لم يبعث الله نبيا تظهر الاعلام على يديه ، ويدعو الى نسخها وتبديلها (٣) ، وقد علمنا خبر النسخ بالتواتر ، فلو كان التوقيف من موسى لكان له من " التوقيف والتأكيد ما زعمتم " و" لعلمنا ذلك ضرورة ، كما علمنا وجود موسى عليه السلام ضرورة " (٤) .

كما شكك الباقلاني في نقل كلام موسى من لغة الى لغة ولاحتمال اختلاف اللفظ والمعنى مما قد يدخل التحريف والتغيير على النص ، ولا ينفك يأتي بنصوص من التوراة والقرآن والحديث لبيان كذب ادعاء خصومه ، وتبيين رفضه لكلامهم بتوقيف النسخ وذلك لعدم ورود نص بهذا المعنى (٥) . وقد اورد حججا في دفاعه عن النبي محمد ، لم يستطع اليهود انكارها ، فكلام القرآن في نظره لم يحرف ، ولم يتغير وقد ورد بلسان عربي فصيح ونقل نقلا متواترا من خلف عن سلف وبهذا بين الفرق بين ادعاء اليهود على موسى ، وادعاء المسلمين على محمد . فالكلام المنقول المتواتر هو الكلام الذي يكون صحيحا اذا صحت اخباره وتقصت معارفه ، وقد بين الباقلاني حجته بالنصوص التي وردت في هذا الشأن ، مما دفع حجة خصومه عنه ، فتابع الكلام على اليهود مبينا انقسامهم ، بترك بعضهم للكلام الذي يدعيه البعض الآخر ، فأوجب نسخ الشرائع ، وبالتالي

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٦٧ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٧٤ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٧٤ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٧٨ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٧٩ ـ ١٨٠ .

.../..

اوجب الايمان بمن جاء بعد موسى من الانبياء والرسل ، وايد كلامه هذا بما كانت فرق من اليهود قد اختلفت فيه ، فمنهم من صدق نبوة من اتى بعد موسى : كيوشع بن نون ، وحزقيال ، واليسع ، وداود وسليمان ومنهم من صدق بابي عيسى الاصبهاني ، ومنهم ما زال ينتظر المسيح (١) .

فلو كان موسى قد اوقف اليهود ، ومنع نسخ الشرائع وبالتالي نسخ شريعته بعده بنص اتاه من عند الله (٢) ، لا بعد كل الاحتمالات المتوقعة ، ولكان هو — اي الباقلاني — اعترف بحجة اليهود ، الا ان شيئا من هذا لم يحصل وقد اورد خصومه نصوصا من حديث موسى لم يقتنع بها لشكه فيها ، وبقيت حجة الباقلاني هي الاقوى لاكثرها خلوا من الشوائب في اعتقاده ولاقترابها من شروط النقل المتواتر الذي يعتبره صحيحا .

ان حجة الباقلاني في تناقل الاخبار ، وفيما اورد منها ، قد تكون اقرب الى امتلاك الرأي من حجة اليهود ، لربما يعود هذا الى مقدرة الباقلاني ، في ترجيح كفته في الكلام اليه او لاعتماد حجته على الادلة التي لم يذكرها اليهود ، وان انكروها وحجتهم في ادلتهم ، وسواء كان هذا وذاك ، فان دافع الايمان ، كان قد سير الجدل بين الفريقين ، فخرج الباقلاني باجوبة على خصمه لم تدع هذه الاجوبة الخصم يتابع الكلام بعده .

— الكلام في اثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم : (٣)

من الدلائل التي تشير الى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم — في اعتقاد الباقلاني — ما ظهر على يديه من الآيات والمعجزات القاهرة ، التي خرقت العادة ، وخرجت عن تركيب الطبيعة ، فالقرآن المرسوم في المصاحف هو من المعجزات التي اتى بها محمد ، كذلك حنين الجذع ، وكلام الذيب ، وجعل قليل الطعام كثيرا ، وانشقاق القمر ، وتسبيح الحصى في يده

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٨٢ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٨٢ .
٣) تناول الباقلاني الكلام في اثبات نبوة محمد وظهور المعجز على يديه مطولا في كتاب اعجاز القرآن ، وقد بحث فيه مختلف القضايا التي يعالجها في هذا الكتاب — التمهيد — اختصارا ، الا ان مسالة القسمة فصلها هنا في طريقة الاستدلال بوجهيها "الاضطراري والنظري" .

٠٠/٠٠٠

وكلام الذراع له ، وفي غير هذه الآيات ، وهي من مقدورات الخالق التي تمتنع على الخلق فلا يأتوا بمثلها (١) .

ويستدل الباقلاني على معجزة القرآن بطريقتين : ١ ـ طريقة الاضطرار ، ٢ ـ وطريقة النظر والاستدلال ، وهذا ما لم نشاهده في كتاب الاعجاز بهذا الوضوح ، وان كان قد اشار الى طريقة النظر والاستدلال ، معتبرا ان العلم بالتواتر من هذه الطريقة ، الا انه لم يأت على تقسيم دقيق ، كما فصل في هذا الفصل من كتاب التمهيد ، حين اعتبر ان الطريقة الاولى : العلم بظهور القرآن على يدى النبي محمد صلى الله عليه وسلم هي علم اضطرار ، من حيث لا يمكن لاحد جحده ونكرانه ، ولا يمكن له ان يرتاب في وجوده ، كذلك ظهور النبي في مكة والمدينة ، ودعوته الى نفسه فان علم ضرورة : فاليهود ، والنصارى ، والمجوس ، والصابئة ، والثانوية ، والزنادقة ، وكل من يدين بغير ملة الاسلام اقر بان القرآن المتلو في محاريب المسلمين ظهر على محمد ودعا الى نفسه (٢) . وهذه حقيقة لا يجحدها احد لحصولها ووقوعها كما وقعت حقيقة نبوة عيسى وموسى حين ادعى الاول الانجيل ، وادعى الثاني التوراة ، وكما اننا لا نستطيع انكار " قفا نبك " من شعر امرىء القيس وانكار " ودع هريرة ان الركب مرتحل " من نظم الاعشى ، كذلك لا ننكر خبر ظهور القرآن . (٣) .

اما المعجزات الاخرى مثل : العلم بكلام الذراع ، وتسبيح الحصى ، وحنين الجذع ، وجعل قليل الطعام كثيرا ، وانشقاق القمر ، فيمكن معرفتها بالنظر والاستدلال لان هذه المعلومات في اعتبار الباقلاني قد تناقلتها الاخبار ، ورواها خلف عن سلف ممن شاهدوا النبي وعاصروه (٤) ، الا ان تعليل الباقلاني هذا لا يدعمه غير طريقة النقل المتواتر والاخبار التي قد يشك البعض في صحتها ، وان كان الباقلاني يعتمدها اساسا في اثبات حجته ، وبرهان رأيه ، وهي مع طريقة العلم بالاضطرار تعتبر من طرق الاستدلال الاصولية ـ والتي ندعوها بالطرق العقلية الخاصة بالمكلف ، وهذا الوجه الذي استعمله الباقلاني في اظهار اعجاز القرآن هو الوجه الاول ، اما الوجه الثاني فندعوه بالطرق الدينية المادية التي تعتمد على اظهار البناء اللغوى

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٣٣ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٣٣ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٣٤ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٣٤ .

... / ..

للقرآن بما فيه من معنى ومبنى : فقد اظهر الباقلاني اعجاز القرآن في نظامه وبراعة تأليفه وفيما انطوى عليه من اخبار الغيوب وعلومها [(١)] ، فمن جهة النظم وقد تحدى النبي به العرب على ان يأتوا بمثله في براعته وفصاحته وحسن تأليفه ﴿قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ [(٢)] . ويقول الباقلاني انهم "لو كانوا مع ذلك قادرين على معارضته او معارضة سورة منه لسارعوا الى ذلك ولكان اهون عليهم ، واخف من نصب الحرب معه ، والجلاء عن الاوطان ، وتحمل الاهوال والصبر على القتل وألم الجراح ، واحتمال الذل والصغار" [(٣)] .

وقد عرف عن الرسول بأنه لم يقصد اهل الكتاب ، ولم يجالسهم ، ولم ينفرد بفصيح يعلمه الفصاحة ، كما عرف عن نظام القرآن بانه لا يكتسب بتعلم وتدقيق نظر ، وذكاء وفطنة ، ومن العجيب ان يبيت الرسول وهو غير عالم بلغة الزنج والترك وغيرها من اللغات ، ثم يصبح افصح الناس بتلك لغة ، وهذه مبالغة من الباقلاني لاظهار مدى تأثير المعجزتين ظاهر على النبي فخلق العلم فيه واقداره عليه في يسير من الوقت ، هو خرق للعادة ، وخروج عما هو عليه بناء الطبيعة [(٤)] ، فالله تعالى لا يظهر الآيات الا لما ذكرناه من القصد الى الدلالة على صدق الرسل عليهم السلام كما انه ليس كل من قدر على كلمة او كلمتين ، او قدر على حرف او حرفين يصبح قادرا على نظام الشعر ، ويصير شاعرا وخطيبا [(٥)] ، فالاعجاز يكون في نظام الكلمات واحكام رصفها ، وكونها على وزن ما اتى به النبي صلى الله عليه وسلم [(٦)] . وان كانت قريش افصح العرب واعرفها باللسان ، واقدرها على سائر الاوزان فقد طاشت عقولها ، فيما اتى به النبي من القرآن واذا قالت الاعراب ﴿انه سحر﴾ [(٧)] ، وقالت عن النبي انه ﴿معلم مجنون﴾ [(٨)] ، فلعجزهم عن الاتيان بمثله .

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٤١ .
٢) سورة الاسراء : ٨٨ ، التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٤١ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٤٢ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٤٣ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٥٠ .
٦) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٥١ .
٧) سورة سبأ : ٤٣ ، التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٤٤ .
٨) سورة الدخان : ١٤ ، التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٤٤ .

../...

اما ما انطوى عليه من الاخبار عن الغيوب ، التي يعلم كل عاقل عجز الخلق عن معرفتها والتوصل اليها ، وادراكها من غير علم سابق بها ، نحو قوله تعالى ﴿لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون﴾ (١) . وقوله ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ (٢) .

واما ما انطوى عليه القرآن من قصص الاولين ، وسير الماضين ، واحاديث المتقدمين وذكر ما شجر بينهم ، وكان في اعصارهم مما لا يجوز حصول علمه الا لمن كثر لقاؤه لاهل السير ودرسه لها وعنايته بها ومجالسته لاهلها ، وكان ممن يتلو الكتب ويستخرجها مع العلم بان النبي لم يكن يتلو كتابا ولا يخطه بيمينه ، وانه لم يعرف بدراسة الكتب ، واخذ السير عنهم (٣) . والقرآن لا يكون معجزا عند من سمعه الا بعد ان يفحصه ويبحث فيه ويعلم به فيعرف ان محمدا سبق الى القرآن وجاء به لظهوره على يديه (٤) .

من ناحية اخرى لا يوجب الباقلاني الاعجاز على التوراة والانجيل ، كما اوجبه على القرآن وحجته في هذا ان موسى وعيسى لم يتحديا اعداءهما من اهل الملل والاهواء والملحدين بمثل التوراة والانجيل — وانما تحديا لما ظهر على ايديهما من معجزات كفلق البحر ، واخراج اليد بيضاء ، واحياء الموتى وابراء الاكمة والابرص (٥) — ولو تحديا اعداءهما بالكتابين ، لوجب ان يكون ما اتيا به من ذلك معجزا . الا ان محمدا فعل هذا واتى بالقرآن وتحدى به قومه ، كما تحدى من يأتي بمثله فلم يفعلوا وقد عجزوا عنه (٦) .

---

١) سورة الفتح : ٢٧ ، التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٥٧ .
٢) سورة القمر ، ٤٥ ، التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٥٧ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٥٩ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٥٣ .
٥) لقد اوضح الباقلاني هذه الفكرة في كتاب اعجاز القرآن وقد اتينا عليها في حينه .
٦) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٥٣ — ١٥٤ .

٠٠/٠٠٠

٣) الكلام في الامامة وتتمة الخبر الصحيح في الائمـــة :

تتميما للفكرة التي بنى عليها الباقلاني كتاب التمهيد ، فقد الحق به جزءا من كتاب آخر "في مناقب الائمة ، ونقض المطاعن على سلف الامة "[1] ، وقد رأى ان ينقل "تلـــك الفصول على وجهها الى هذا الكتاب "فيزيد في بعضها وينقص من بعضها "طلبا لسرعـــة الفراغ من ملتمس الامير "[2] ،[3] غير ان فكرة الباقلاني قد تكون تهدف الى غاية اخرى ، اذ ليس لسد الفراغ الذي يشكو منه الامير فحسب ، وانما كانت ايضا لوضع كتاب جامع مختصر ، يعيـــن الامير على التأمل والنظر في مختلف الاقوال والآراء المنتشرة في تلك الحقبة من الزمن وذلك "لازالة الشكوك فيه والارتياب "[4] ، وهو الذي ترك بغداد الى شيراز ليمثل جماعة اهل الحق ، هذه الجماعـــة التي يدعي انتماءه اليها ، فيرشد الامير البويهي الشيعي في كيفية تمحيصه للاخبار ، وتمييـــزه بينها فيترك الفاسد منها ، ويأخذ ما يصلح ، فلا ينصر اماما على امام من الائمة الاربعـــة الذين توالوا على الامامة بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، لان الامامة في رأيه تثبت بالنـــص وبالاختيار اذا وافقت الشروط الواجبة لها رأى الجماعة من اصحاب الحل والعقد .

أ) الكلام في الخبر : فئاته ، وانواعه

الخبر في تعريف الباقلاني ما يحتمل الصدق والكذب ، فاذا خرج عن هذا الوصـــف لا يكون خبرا[5] ، ويقسم الباقلاني الاخبار الى ثلاث فئات : ١ ـ فئة من الاخبار عن واجب حاصل وهذه الفئة تخبر عن امر ثابت يثبت الحواس له والعلم الضروري به مثل : ما تدركـــه الحواس ، وعدم اجتماع الضدين ، وكون الجسم في مكانين ، والخبر عن حدث العالم من محدث[6] ، ٢ ـ وفئة ثانية من الاخبار وهي عن محال ممتنع الحصول ، لا يعلم بالعلم الضروري والحواس ،

---

١) التمهيد (طبعة ١١٥٧) : ١٧٨ .

٢) التمهيد (طبعة ١١٥٧) : ٣٧٨ .

٣) ان (نشرة ١١٥٧ للتمهيد تحوي هذه الفقرات التي لم اجدها في (نشرة ١١٤٧) للتمهيد مع ان الكلام في الامامة موجود في النشرة الأولـــى ، والفقرات هذه مهمة ممتدمـــة لفصول الاخبار والامامة من حيث انها تبين السبب الذي دعا الباقلاني الى الحاق فصل الامامـــة بالتمهيد .

٤) التمهيد (طبعة ١١٥٧) : ٥ .

٥) التمهيد (طبعة ١١٤٧) : ١٦٠ .

٦) التمهيد (طبعة ١١٤٧) : ١٦٠ .

.../..

ولا بالحجج والبراهين ، نحو الخبر عن حدوث القدم وقدم الحدوث ، ٣ - وفئة ثالثة من الاخبار عن مكان الحصول ، وهذا الخبر محتمل الصدق ، والكذب مثل : الاخبار عن مجيء المصرفي بلد ما ، ونحو الاخبار عن الرسول انه اوصى بامام بعده [(١)] ، وهذه الفئة من الاخبار اراد بها الباقلاني وعناها وميزها عن الفئتين الاخريين لانه يرمي الكلام في الاخبار عن الامامة .

والخبر في تقسيم الباقلاني نوعان : احاد ، ومتواتر ، فمن شروط الخبر الآحادي ان يكون واحداً ، وناقله واحد ايضاً [(٢)] ، ومن صفات هذا الخبر انه لا يوجب العلم به ضرورة ، ولكن يوجب العمل به ان كان ناقله عدلاً شرط ان لا يعارضه خبر آخر فيه ضد موجب له [(٣)] ، اما شروط الخبر المتواتر ، وهو النوع الثاني من الاخبار - ان يقع اضطراراً ، فنجد انفسنا عالمة بما تدركه حواسنا بالضرورة فلا يمكن الشك فيه ، وقد يماردنا في معرفته "النساء والعامة الذين ليسوا من اهل النظر" [(٤)] . وان يكون الناقلون للخبر عالمين به ضرورة بالمشاهدة او السماع او يكون مخترعاً في النفس من غير نظر واستدلال . وان يكون عدد الناقلين له يزيد على الاربعة وان يكون الخبر صادقاً من العدد جميعه فيكون خبر الواحد كالثاني ومن صفات ناقلي الخبر المتواتر ان يكون السلف كالخلف ، ويكون اول الخبر كآخره ووسط ناقليه كطرفيه ، وان يثبت بهم نقل الاخبار بالتواتر - اي ان يمتازوا بصدق نقل الاخبار [(٥)] ، وقد تناول الباقلاني الكلام في الخبر المتواتر وميزه عن شروط الخبر المتواتر عند اليهود وذلك في فصل الكلام على اليهود في الاخبار [(٦)] .

ب) في موجبات الامامة : الرد على الشيعة :

١ - طريقة تولية الامام :

يقول الباقلاني ان الامام يتولى على الامة بطريقتين : اما بالنص ، او بالاختيار ، فماذا فسد النص يتم الاختيار [(٧)] . والنبي صلى الله عليه وسلم في اعتقاد الباقلاني لم ينص على امام

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٦١ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٦٤ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٦٦ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٦٣ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٦٣ - ١٦٤ .
٦) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٦٠ - ١٧٥ .
٧) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٦٤ .

.../..

بعينه ولم يختاره بغرض طاعته على الامة ، ولم يتم بمحضر من الصحابة او الجمهور او حتى بحضور واحد او اثنين من اهل الحل والعقد هذا على ليختي والامام من بعدى فاسمعوا له واطيعوا "[١] .

ويدعي الباقلاني ان نص النبي الذى ادعته الشيعة في اختيار علي لا يلتزم بشروط النقل المتواتر اذ لو كان صحيحا لانتقل من خلف عن سلف ، وشاع وذاع بينهم ولعلمنا بالضرورة ان الشيعة فرقة ادقة فيما تنقله من النص ، ثم ان هنا فرقا اخرى غير فرقة الشيعة مثل الزيدية ومعتزلة بغداد تفضل عليا ، غير انها تنكر ان يكون النبي صلى الله عليه وسلم نص على امامته من بعده "[٢] .

ويرفض الباقلاني الاعتماد على الخبر الاحادي المتناقل عن الشيعة لعدم توفر شروط صدقه ، وشروط موافاته للنقل الذى ذكر تحديده ، لان اخبار الآحاد التي يدعيها " الموالون لعلي "[٣] ، وقد عارضها اجماع المسلمين في الصدر الاول للاسلام ودعوا الى ابطالها وترك العمل بها " فالأمة انقادت لابي بكر ، وعمر رضي الله عنهما " وقد كان فيهم علي والعباس وعمار والمقداد ، وابو ذر ، والزبير بن العوام ، وهذه حقيقة لا يمكن اخفاؤها على احد مما دعا الشيعة الى القول : " التقية ديننا "[٤] . ويقول الباقلاني ان العمل بالخبر الواحد والصدق به يكون من الاخبار الآحادية في الشريعة " اذا لم يعارضه خبر يضاد موجبه "[٥] . اما هذا الخبر الذى ادعته الشيعة ، فقد عارضه خبر آخر من البكرية والراوندية وكل من قال بالنص على ابي بكر ، والنص على العباس ، وقد يكون خبر هؤلاء اقوى واثبت[٦] . هذا ما رآه الباقلاني .

كما يوجب الباقلاني العقد للامام بعد ان يفسد النص ، والدين يعقدون له ويختارونه هم من افاضل المسلمين المؤتمنين من اهل الحل والعقد ، فالامامة لا تثبت لامام ، الا عن هذين الطريقين : النص والاختيار ، وعلينا بالاختيار اذا فسد النص[٧] .

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٦٥ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٦٥ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٦٨ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٦٨ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٦٩ .
٦) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٦٩ .
٧) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٧٨ .

.../..

وعقد الامامة - عند الباقلاني - الذي يتم لرجل واحد فاضل يكون من اهل الحل والعقد ، عقد ثابت صحيح شرط ان يكون الامام فاضلا وله مواصفات الائمة [١] . ولا يجعل عودة الاختيار الى كل فضلاء الامة في كل عصر من عصور المسلمين لاعتقاده ان من الصعب جمع سائر اهل الحل والعقد في سائر الامصار في مكان واحد ، واطباقهم على البيعة لرجل واحد تماما . هذا الفعل لم يكلف الله تعالى الناس عليه ، كما لم يدعوهم الى ترده ، فلم يحصل لسلف الامة ان يجمعوا في العقد لابي بكر وعمر وعثمان وعلي فضلاء الامة من اهل الحل والعقد في امصار المسلمين ، ولا في المدينة . فعمر مثلا وهو الذي رد امر الشورى الى ستة اشخاص من الفضلاء لم يرد الامر الى اكثر من هؤلاء ، وقد كان فيهم من يصلح للحل والعقد . ثم ان ابا بكر عقد الامامة لعمر وحده ، وتمت له البيعة وقد سلم عودة عقده له [٢] .

٢) شروط عقد الامامة :

يعتقد الباقلاني ان ما من بيعة تتم للامام الا وتكون في محضر من جماعة المسلمين قل عددهم او يكثر ، اذ ليس من شرط يشترط في تحديد عددهم [٣] ، فللامة الحق في عقد البيعة ، وان كان ليس لها الحق في فسخ العقد ما لم يحدث من احداث توجب خلع الامام - والباقلاني في فتواه هذه يتبع ما جاء في القرآن من حد في العقود ، فقد يملك المرء حق عقد البيع ولكن لا يملك حق حل العقد [٤] ، ثم ان الرجل صاحب الحل والعقد لا يعقد لنفسه لان الشريعة لم تفسر مثل هذا . واذا تم العقد لعدة ائمة في بلدان متفرقة ، فان العقد الاول يكون صالحا للعمل به فيقر بامامة من تمت له البيعة ، واما الباقي فعليه ان يتنازل للاول ويبايعه ويواليه ، واذا لم يفعل يقاتل فقد يعتبر عاصيا عن الامر [٥] .

وان ادعى كل امام انه الاسبق تبطل كافة العقود ، وتتم البيعة من جديد باختيار امام واذا حصل خلاف في اختيار واحد منهم ، فان الناس تقاتلهم عليه ، حتى اذا تمكنوا من تنصيبه بالقوة يعود السلام ، واذا لم يتمكنوا يظل الناس في غلبة وفتنه [٦] . اما اذا كانت

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٧٨ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٧٦ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٧٦ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٧٦ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٨٠ .
٦) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٨٠ .

.../..

مفترقة على مذاهب مختلفة وآراء متضادة والحق منها في واحد ، فيدعي كل منهم انه على حق دون غيره (١) . فان من سبق وتمت بيعته يكون الامام ، فيلزم الامة بالتالي طاعته ، ويصير المخالف عليه باغيا يجب حربه ، اما اذا كان من اختلفت فيه الامة ليس اهلا للامامة ، وممن يتوجب عليه التكفير والتفسيق ، فانه في هذه الحالة تنعقد الامامة لواحد من اهل الحق دون غيرهم — واهل الحق في اعتقاد الباقلاني هم اصحاب الاشعرية من اهل السنة والجماعة هذه الفرقة التي ميزت نفسها عن الفرق الاسلامية الاخرى كالمعتزلة والرافضة والخوارج والشيعة — واذا ابعد امام اهل الحق وتمت البيعة لغيره من الفرق الاخرى يصبح اهل الحق في دار غلبه وقهر واما اذا تقاومت الفرق وتمانعت وانحاز اهل الحق الى فئة دون فئة ، ونصبوا حربا وراية ، فمن تعقد له البيعة من هؤلاء يكون هو الامام دون غيره من اهل الضلال (٢) .

٣) صفات الامـــام :

والامام الذي تتم له البيعة في اعتقاد الباقلاني هو امام اهل السنة والجماعة ، من صفاته : ان يكون من قبيلة قريش ومن صميمها ، وان يكون عالما بمنزلة قاض من قضاة المسلمين وقادرا على تدبير الجيوش وادارة الحرب ، وان يكون رجل دولة مسلم ، واماما عادلا يقيم الحد بلا جذع ، ولا هوادة وان يكون عالما تقيا ، ولا يشترط الباقلاني في الامام المرشح للامامة ان يكون معصوما ، ولا من افرس رجال الامة واشجعهم كما لا يشترط ان يكون الامام من بني هاشم فقط دون غيرهم من قبائل قريش خوفا من ان يصبح داعيا للفرقة الشيعية التي والت علي ونادرته (٣) .

٤) ما يوجب خلع الامـــام :

يقول الباقلاني ان ما يوجب خلع الامام ان يكفر بالاسلام بعد ان آمنوا به . وان يفسق وان لم ينتهب الاموال ، فان فسق الامام وظلمه واغتصابه للاموال وضرب النفوس ببعضها ، وتضييع الحقوق وتعطيل الحدود من الموجبات التي تدعو الى خلعه (٤) .

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٨١ .
٢) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٨١ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٨٢ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٨١ .

.../..

وكذلك يجب خلع الامام اذا اصيب بالآفات الجسدية : كالجنون والصمم والخرس ، والكبر والهرم ، واذا حصل له امر يبعده عن النظر في مصالح المسلمين فان الامام في احدى هذه الحالات يخلع من الامامة وينصب غيره مكانه ، واذا زالت عنه هذه الآفات لا يعود الى منصبه كامام ، لان الامام الجديد يكون قد تولى مكانه بعقد يعقد له من عقلاء الامة (١) .

ج) الكلام في الائمة الاربعة رضي الله عنهم جميعا :

١) مناقب الامام ابو بكر عبد الله بن قحافة (٢) :

يعتبر الباقلاني ان ابا بكر رضي الله عنه كان بصفة من يصلح للامامة فهو من قريش ، وعالم في الدنيا والدين ، يقضي بامور المسلمين ، ويحمي حمى البلاد ويذود عن العباد زيادة عليه ، فقد عقد له البيعة جماعة من افاضل اهل الحل والعقد ، وهم عمر بن الخطاب وابو عبيدة بن الجراح ، وقد كان حاضرا عدد من المهاجرين والانصار (٣) .

وكان ابو بكر بصفة الامام الصالح لامامة المسلمين ، وقد اجتمعت فيه خصال الائمة ، منها اول من سبق الى الايمان ، فجاهد في سبيل الله بماله ونفسه ، وانفق على الرسول منه الكثير ، وآنسه في الغار ، ودعا الى الايمان ، وبنى مسجدا لتصديق الرسول والدعوة الى دين الله ، وكان النبي يعظمه ويخلي له مكانا عن يمينه وسمى صديقا ، وقد أم ابو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كان الرسول مريضا (٤) .

وبعد النبي اتبع ابو بكر سنته ، فحين اراد محاربة اهل الردة ، انفذ لهم جيش اسامة ، كما كان قد انفذه رسول الله في غزواته (٥) فخالف بعمله هذا رأى الكافة . كما انفذ خالد بن الوليد ، ومن معه من الجيوش لمحاربة مسيلمة ، ودعاة الكفر في اليمامة

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٨٦ .
٢) هو ابو بكر عبد الله بن ابي قحافة وكان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة فسماه رسول الله عبد الله ولقبه عتيقا وسمى صديقا لتصديقه خبر الاسراء توفي سنة ١٣ هجرية وكانت ولايته سنتين وثلاثة اشهر وتسع ليال (انظر المعارف لابن قتيبة ـ : ١٦٧ ، ١٧١) .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٨٧ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٨٦ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٩٢ .

٩

.../..

حتى اباد هم ــ هذا على حد قول الباقلاني ــ [١] .

٢) في صحة امامة عمر بن الخطاب [٢] :

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان من فضلاء الامة ، وقد عهد اليه ابو بكر بالخلافة امام جماعة من الفضلاء ، من اهل الحل والعقد وكانوا قد ردوا المشورة الى ابي بكر فاختار عمر فلم يعترضوا ، ولم يقل قائل منهم "لم تعهد فيما جعل الله لك العهد فيه ؟ ولا قال ذلك قائل في غير مجلسه ولا بعد وفاته" [٣] .

ويعتبر الباقلاني ان عقد الامامة الذي عقده ابو بكر لعمر كان عقدا صحيحا ، فابو بكر كان اماما منصفا ، وعادلا عفيفا ، ولم تكن منه خيانة في مدة ايام نظره ، ولا بعد موته وقد جاز له عقد امامة عمر فحصل وتم العقد له [٤] ، مما يدل على اجماع اهل الحق الذين قالوا بالامامة "ان للامام ان يعهد الى امام بعده" [٥] .

٣) في امامة عثمان بن عفان [٦] :

يشير الباقلاني الى صحة امامة عثمان رضي الله عنه حين بايعه عبد الرحمن بن عوف في محضر اهل الشورى ، وقد كانوا خمسة ، ما عدا طلحة الذي كان غائبا وحين قدم بايع ايضا ـ ويعتبر الباقلاني ان البيعة كانت تتم لو عقد واحد من هؤلاء الستة للاخر وهم : طلحة [٧] ،

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ١٩٣ .

٢) هو عمر بن الخطاب بن نفيل ، وينتسب عمر الى عدي فيقال : العدوي يكنى بابي حفص ، توفي مقتولا قتله فيروز ابو لؤلؤة سنة ٢٣ هجرية ، وكانت ولايته عشر سنوات وستة اشهر وخمس ليال (انظر المعارف لابن قتيبة : ١٧٩ ــ ١٨٣) .

٣) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ٢٠١ .

٤) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ٢٠٢ .

٥) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ٢٠١ .

٦) هو عثمان بن عفان بن ابي العاص بن امية ، يكنى بابي عمرو وابي عبد الله مات مقتولا سنة ٣٥ هجرية ، كانت ولايته ١٢ سنة ، (انظر المعارف : ١٩١ ــ ١٩٨) .

٧) هو طلحة بن عبيد الله من المهاجرين الاولين ومن العشرة المسمين للجنة واحد اصحاب الشورى قتل وله من العمر اربع وستين سنة وقد اختلف في سنه وكانت سنة وفاته ٣٦ هجرية ، (انظر المعارف : ٢٢٨ ، ٢٣٠) .

../...

والزبير [١] ، وعبد الرحمن [٢] ، وسعد [٣] ، وعثمان ، وعلي رضي الله عنهم جميعا ، فهم جميعهم يصلحون لعقد البيعة ، واذا تمت لعثمان من عبد الرحمن بن عوف فهي بيعة صحيحة . ويعتبر ان فعل عمر بن الخطاب في جعلها شورى كان فعلا صحيحا ، فقد كان عليه ان يعهد لواحد منهم ، ولما اشكل عليه الامر جعلها شورى بينهم لان اصلاحهم في رأيه قد يكون في واحد منهم ، وان كان لم يدر ايهم يكون للامة اكثر صلاحا . وقد خاف وقوع الفتنة بينهم فالتزم الاحتياط [٤] .

ويقول الباقلاني ان عبد الرحمن بن عوف جمع القوم واستشارهم [٥] . وكانت مشورته لهم صادقة وامينة في نقل الاراء بينهم ، مما لم يطعن بها احد من الصحابة الباقين ، وقد تمت بيعته لعثمان على مرأى من الصحابة وبرضى منهم . فان عبد الرحمن اشترط في الامام ان ينهج نهج الشيخين ، وقد رفض علي شرطه هذا لالتزامه برأيه بعد القرآن والسنة . بينما قبل عثمان تقليد ابي بكر وعمر في الاحكام [٦] .

"والامامة اذا ثبتت بعقد صحيح مأذون فيه لم ينخلع صاحبها اذا اراد العاقد خلعه ، ولا يخلع غيره ، ولا بذم احد له ، ولا بالتأويل عليه" [٧] . وانما ينخلع الامام بما يحصل من الاحداث المعلومة الثابتة الظاهرة التي توجب خلعه - وقد بين الباقلاني شروط خلع الامام - فان عثمان رضي الله عنه قتل مظلوما ولم يصدر منه ما يوجب قتله فيحرص على المطالبة بخلعه ، واما الذين قتلوه فهم اهل فتنة ، وليسوا من اصحاب الحل والعقد ، ولعثمان صفات وفضل :

---

١) هو الزبير بن العوام بن خويلد كان الزبير حواري رسول الله واحد العشرة الذين سموا للجنة واحد اصحاب الشورى قتل سنة ٣٦ (انظر المعارف : ٢١٩ ، ٢٢٠) .

٢) هو عبد الرحمن بن عوف ... بن الحارث بن زهرة ، وهو احد العشرة الذين سموا للجنة واحد الستة الذين ذكروا للشورى توفي سنة ٣٢ هجرية (انظر المعارف : ٢٣٥ - ٢٣٦) .

٣) هو سعد بن مالك بن اهيب بن عبد مناف وهو احد العشرة الذين سموا للجنة واحد اصحاب الشورى توفي سنة ٥٥ (انظر المعارف : ٢٤١ - ٢٤٢) .

٤) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ٢٠٣ - ٢٠٦ .

٥) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ٢٠٨ .

٦) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ٢٠٨ .

٧) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ٢١١ .

../...

فهو من المهاجرين الاولين ، ومن اهل الحل والعقد ، وقد جاهد بنفسه وماله في سبيل الاسلام ، وقد خاف على القرآن من الضياع فامر بجمعه ، كما عرف الاحكام الشرعية في الحلال والحرام ، وجهز جيش العسرة واشترى بئر رومة ، ووسع مسجد النبي من ماله وقد ثبتت بيعته مما اوجب طاعته ، والانقياد له ، وهو الذى لم ينصب الحرب ويرفع رايتها بينه وبين من سار اليه من المسلمين فقتل مظلوما (١).

٤) في مبايعة علي بن ابي طالب (٢):

يقول الباقلاني ان الامامة اسندت الى علي رضى الله عنه "لكمال خلال الفضل فيه واجتماعها له" (٣). فهو من الاوائل السابقين الذين كثر اجتهادهم في سبيل الله ، وقد علم الصحابة مكانته لما له : من علم واسع ، وفضل ثاقب ، وفهم للاسلام عميق ولما يتمتع به من رأى نافذ ، فقد كان عمر رضى الله عنه يطلب مشورته (٤) ، فيظهر اجتهاده في علم الدين وفقهه ، وقد اظهر تفوقا ومقدرة في قتال اهل القبلة ، فاستدعاهم وناظرهم ، وترك مبادأتهم حتى يتوبوا الى الله ، وقد حذر اتباعه من المبادءة كما حذرهم من الغدر بهم (٥). هذا وكان علي شجاعا غنيا ، عالما بتدبير الجيوش ، واقامة الحدود والحرب ، وسياسة البيضة (٦).

فعلي افضل من بقي من الصحابة ، وممن عقد له من اهل الحل والعقد ، وقد ابى امامة المسلمين بعد مقتل عثمان ، وكره البيعة ولم يقبلها الا على مضض خوفا من تفشي الفتنة بين الامة . ويعتبر الباقلاني ان امامة علي رضى الله عنه صحت بعد ان تمت البيعة

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ٢٠٢ ، ٢٠٣ .
٢) هو علي بن ابي طالب بن عبد المطلب ابن هاشم يكنى ابا الحسن قتل سنة ٤٠ وكانت ولايته خمس سنين الا ثلاثة اشهر (انظر المعارف : ٢٠٣ - ٢٠٩).
٣) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ٢٢٧ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ٢٢٨ .
٥) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ٢٢٨ .
٦) التمهيد (طبعة ١٩٤٧) : ٢٢٩ .

٠٠/٠٠٠

له ،حتى وان تأخر طلحة والزبير عن مبايعته ،فهما ان لم يفعلا ،كان يتوجب عليه قتالهما لانهما يعتبران مأثومين في تأخرهما ، اذ ليس لطلحة والزبير من حجة يحتجان بها ،بعد ان والت الجماعة عليا ،وبايعته .

ان اهتمام الباقلاني بكتاب التمهيد لم يكن ليوجد لولا ان غلبت عليه فكرة اطلاع الامير البويهي الشيعي على آراء اهل السنة والجماعة ،ولولا تفكير الباقلاني بالرد على مختلف الآراء المنتشرة ،انذاك ،فجاء الكتاب مكثفا من حيث المحتوى ، ومحشورا من حيث آراء الباقلاني المختلفة في تحديد العلم والمعلومات ،وفي وجود الله الواحد المرسل للانبياء والرسل وفي امامة الامة بعدهم فتكلم في العلم وقسمه الى علم الخالق وعلم المخلوق وقسم المعلومات الى موجودات ومعدومات ،معتمدا على طريقة واضحة في الاستدلال : فالنقيضان لا يجتمعان ،ويمكن الاستدلال على صحة الشيء اذا كان مثله صحيحا ،والاستدلال على بعض القضايا العقلية بالتوقيف والسمع وبالتواتر .

وكان عليه بالتالي ان يعالج المسائل الكلامية المثارة من الملحدة والمعتزلة والرافضة والخوارج ،فتكلم في التوحيد وابطل القول بالطبائع لان فعل الطبائع لا يؤثر على الاشياء فهو حادث مثلها ،كما ابطل تأثير الكواكب على عالمنا فالله تعالى قادر على ان يجعلها تؤثر اولا تؤثر على هذا العالم ،لان الكواكب حادثة من خالق احدثها لا من شيء . كما نزه الله تعالى عن الآفات فهو الذي يحدث الشيطان كما يحدث سائر الشرور وهو حكيم في فعله غير سفيه ،واما النور والظلام فهما من جملة ما احدثه الله في العالم ،وليسا قديمين او فاعلين بالطبع والاختيار ،ثم ان الاجسام ليست من اصلين نور وظلام ،فالاجسام كلها من جنس واحد . ونزه الباقلاني الله عن القتل والصلب وتعرضه للموت ،فالله تعالى يستطيع ان يدفع عن نفسه هذه الآفات ،والمسيح في اعتقاده نبي مرسل وليس آلها ،ولا هو ثالث ثلاثة ،وان الله واحد احد لا شريك له واثبت الباقلاني ان للخالق صفاتا ذاتية ،من علم وحياة وارادة وقدرة و سمع وبصر وكلام وصفاتا فعلية من خلق ورزق وغيرها ،واعتبر ان صفات الذات الالهية غير صفات الافعال فهي موجودة مع عدمها بينما صفات الافعال محدثة ،وهذا ما دعا الباقلاني الى الرد على

٠٠/٠٠٠

ابي هاشم في الاحوال ، والى القول بان الحال اما ان تكون معلومة ، او غير معلومة فاذا كانت غير معلومة فلا سبيل الى معرفتها واذا كانت معلومة فهي موجودة او معدومة . واذا كانت معدومة فيستحيل ان توجب حكما ، اما اذا كانت معلومة ، وموجودة فيجب ان تكون شيئا وصفة . وهكذا بدورته الجدلية هذه يعود الى اثبات الصفات الالهية وهي غير موجبة لله تعالى ، لانه يتعالى عن العلل . وهذه الصفات كما بين الباقلاني زائدة على وصفه تعالى بانه شيء او موجود او ذات ، ووصفه هذا بأنه عالم وقادر ، قد ينتفي عنه مع وجود نفسه وكونه شيئا موجودا .

ويرى الباقلاني ان القرآن غير مخلوق فمن غير الجائز ان يكون مخلوقا في غيره لان كلام البارى لا يكون صفة لغيره ، وكلاما لغيره فالمخلوق في اعتبار الباقلاني عرض محدث والعرض يفنى في ثاني حال وجوده ، فلا يمكن ان يكون القرآن مخلوقا كما تدعي المعتزلة لان خلقه هذا يدعو الى فناء كلام الله وبالتالي لا يكون البارى آمرا ، ولا ناهيا ، وهذا ما ابطله الباقلاني . فالله آمر ناهي باشياء وعن اشياء ، وليس كلام الله من جنس كلام المخلوقين ولا تشبه حروفه حروف المعجم التي يعرفونها ، لذلك لا يستطيع المخلوق ان يوجد مثله .

وفي التمهيد ايضا تناول الباقلاني الكلام في قدرة الانسان على التصرف فالانسان يستطيع لكسبه يعرف الفرق بين قيامه وقعوده ، وكسب الانسان ليس بنفسه ولكن بقدرة تحدث له من الله تعالى ، وهذه القدرة عرض من الاعراض ، لا يمكن ان يبقى زمانين ، كما لا يقدر بها على مقدورين ، فاذا قدر الانسان على الفعل قبل حدوثه فهو لا يقدر على تركه كما لا يقدر على الشيء ذاته في كل مرة ، لان الله تعالى يخلق فيه هذه القدرة وقد يضعها في مرة ثانية وثالثة .

فالانسان ليس فاعلا للحوادث والله تعالى هو الذى يفعلها ، وبذلك يبطل الباقلاني القول بالتولد — الذى قالت به المعتزلة — فجرى العادة من الله في اعتقاده ليس افسادا للادلة العقلية ، التي يعتبرها المعتزلة ادلة صحيحة وبرهانه ان هذه الادلة تعتمد على دلالة الاعراض وهو اعتقاد فاسد في نظره ، وليس هو من الدليل الصحيح في شيء لان الاعراض تفسد في ثاني حال وجودها .

٩

.../..

ويرفض الباقلاني ان يكون العقل وحده هاديا دون الرسل ، فالشرع واجب في حكمه لاثبات الافعال بدل العقل ، فاننا لا نستطيع معرفة الاحكام ما اذا كانت قبيحة ام حسنة ، واذا لم يردنا ما يخبر عنها . فالشرع يدرك العلم بوجود الصلاة واتاء الزكاة والسعي بين الصفا والمروة وغيرها .

ويعتقد الباقلاني ان الشريعة لازمة ما لم يبعث الله نبيا تظهر المعجزات على يديه ويدعو الى نسخها . وقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم فاظهر المعجزات على يديه ونقض العادات فدل بذلك على صدقه ، ومن هذه المعجزات القرآن المرسوم في المصاحف ، فالقرآن معجز سواء في نظمه ام في براعة تأليفه . وكذلك فيما انطوى عليه من اخبار الغيوب وعلمها ، وفيما اورد من قصص الانبياء والرسل وسير الماضين في غابر الازمان .

وفي التمهيد ايضا تناول الباقلاني الكلام في الامامة ، وهي المكانة التي يتولاها من يجيء بعد النبي ، فيشترط عليه شروطا معينة : ان يكون من اهل الحل والعقد ، ومن قبيلة قريش وان يكون عالما ، قاضيا مدبرا للجيوش ورجل دولة مسلم ، وان يكون اماما عادلا ، ولا يشترط العصمة في الامام ولا ان يكون من بني هاشم دون القبائل الاخرى من قريش .

../...

الخاتمة

مكانة الباقلاني :

يتبين مما سبق ، من هذه الدراسة ان الباقلاني كان علما شامخا في الفكر الاسلامي ، قوي الحجة رفيع المكانة في الجدل والكلام ، وهو الذي " له التصانيف الكثيرة في الرد على المخالفين من المعتزلة والرافضة والخوارج ، والمرجئة والمشبهة والحشوية" (١) وهو العالم الاشعري من علماء الامة " الذين درجوا في درجات الافادة " من امامهم الاول ابي الحسن الاشعري " وتخرجوا بكلمات العلم المنقولة عنه كيف تناقلتهم الاعصار ، وتهادتهم الامصار ، وطلعوا في كل افق طلوع الشمس ونسخوا بمحكمات علومهم كل لبس ، وقضوا من كشف غوامض الكتاب والسنة كل حاجة في النفس" (٢) .

فهذا الاشعري المتكلم الذي ادخل على علم الكلام ، اساليب منطقية ابتدعها باجتهاده الذاتي واطلاعه الواسع على القرآن والسنة وعلى علوم شيوخه من المحدثين والمتفقهين والمتكلمين ، قد تصدر للامامة على طريقتهم فهذبها واختار ما يناسبه منها ، كما فعل في لفظ الاختيار ففضله في بعض الاحيان على لفظ الكسب الذي استعمله شيخه الروحي ابو الحسن واستحسنه لوروده في القرآن الكريم . يقول السبكي : " ان الاختيار والكسب عبارتان عن معنى واحد ، ولكن الاشعري آثر لفظ الكسب على لفظ الاختيار لكونه منطوق القرآن ، والقوم آثروا لفظ الاختيار لما فيه من اشعار قدرة للعبد . وللقاضي ابي بكر مذهب يزيد على مذهب الاشعري فلعله رأى القوم " (٣) .

والباقلاني كما يقول ابن خلدون " وضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الادلة والانظار ، وذلك مثل اثبات الجوهر الفرد ، والخلاء وان العرض لا يقوم بالعرض وانه لا يبقى زمانين ، وامثال ذلك مما تتوقف عليه " ادلة المتكلمين " فقد جعل هذه القواعد تبعا للعقائد الايمانية في وجوب اعتقادها لتوقف تلك الادلة عليها وان بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول " (٤) .

---

١) تبيين : ٢١٩ .
٢) طبقات الشافعية ٣ : ٤٣١ .
٣) طبقات الشافعية ٣ : ٣٨٦ .
٤) مقدمة ابن خلدون في علم الكلام ٣ : ١٠٤٦ - ١٠٤٩ ، تحقيق علي عبد الواحد وافي - (الطبعة الاولى ، ١٩٦٠) .

.../..

لقد اشار ابن خلدون الى نظرية الجوهر الفرد او الجزء الذي لا يتجزأ وهو الوحدة التي تنتهي . وقد حددها الباقلاني في كتاب التمهيد في الفصل الخاص بالعلم والمعلومات (١) كما مر ذكره من قبل . فالجوهر يقبل من كل جنس من اجناس الاعراض عرضا واحدا ، وهو محدث كالعرض الذي يفنى في ثاني حال وجوده وهو الذي يؤلف معه الجسم ، فالجسم يتألف من الجوهر والعرض . وقد اراد الباقلاني الشروع من برهان نهاية الجوهر الفرد ليثبت حدوث العالم من موجود واحد قديم ، العالم محدث وليس من وجود لقديم آخر لان الله وحده هو القديم المتعالي يحدث الاشياء وينهيها .

واما اشارة ابن خلدون الى طريقة الاستدلال عند الباقلاني فهي لتدل على المنهج المنطقي الذي اتبعه في ان " بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول " (٢) . فهذا النوع من الاستدلال يعتمد على ان الشيء وضده لا يمكن ان يجتمعا فالشيء ينقسم في العقل الى قسمين ، اما ان يكون صحيحا ، واما ان يكون فاسدا . واذا كان الشيء قديما لا يمكن ان يكون حادثا ، وبهذا الاستدلال نأتي على الحكم على الغائب من خلال ما تراه العين مشاهدة ، فالجسم لا يكون جسما الا اذا كان مؤلفا ، والعالم لا يكون عالما الا اذا اجتمعت به صفات العلم (٣) .

ثم هناك الاستدلال بالحسيات الظاهرة التي نشاهدها ، فلا نار الا اذا كانت حارة ملتهبة ، ولا انسان الا اذا كانت له بنية الانسان (٤) . ونستدل ايضا عن طريق الاخبار المتواترة على ظهور المعجز وصدق النبي صلى الله عليه وسلم ، فالخبر المخبر عنه صادق ، وانتقال الاخبار الينا صحيحة ، وهناك ادلة التوقيف والسمع التي تعتمد على الكتاب والسنة ، واجماع الامة ، والقياس الشرعي وما يجرى مجراه من ضروب الاجتهاد . وقد حاول من اتى بعد الباقلاني ان يبلور هذه الطرق الاستدلالية

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٧ .
٢) مقدمة ابن خلدون ٣ : ١٠٤٦ .
٣) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٢ .
٤) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ١٢ .

.../..

ويوضحها كالامام الحرمين الجويني في كتابه الشامل في اصول الدين ثم في الارشاد (١). والامام الغزالي في كتابه الاقتصاد في الاعتقاد (٢). وكلا الامامين من الائمة الاشعرية اللذين توصلا بها الى اوج مراحلها .

الا ان ابن حزم الظاهري في كتابه "الفصل" (٣). نقد نظرية الباقلاني بما فيها نظرية اصحابه الاشاعرة . فاثبت ان الجسم هو الجوهر وان العرض منه ما يزول ومنه ما لا يزول (٤). وان "ليس في الوجود الا الخالق وخلقه ، وانه ليس الخلق الا جوهرا حاملا لاعراضه ، واعراضا محمولة في الجوهر ، وانه لا سبيل الى تعدى احدهما على الآخر فكل جوهر جسم وكل جسم جوهر" (٥). واختلف مع الاشعرية ايضا في ان "النفس والروح اسمان مترادفان لمسمى واحد ومعناهما واحد" (٦). فالباقلاني يعتبر "ان الروح عرض وهو الحياة . فهو غير النفس" (٧) — وهذا تعبير ابن حزم .

وفي مكان آخر من كتابه يرد ابن حزم على الباقلاني واصحابه بوجود الطبائع جملة" (٨). وقد ذكر فيها الطبيعة ، والخليقة ، والسليقة ، والغريزة والسجية ، والسيمة والجبلة" (٩). ولما كان القرآن نزل بها ، ولما كانت هذه الالفاظ مسموعة من النبي ولم يرفضها ولم ينكرها احد من الصحابة ، يعتبر ابن حزم ، ان هذه الطبائع مخلوقة من الله تعالى فالله "رتب الطبيعة على انها لا تستحيل ابدا ، ولا يمكن تبدلها عند كل ذى عقل كطبيعة الانسان بان يكون ممكنا له التصرف في العلوم والصناعات" (١٠) ثم يقرن الصفات بالطبائع فيقول : "كل ما في هذا العالم والقوم مقرون بالصفات وهي الطبيعة نفسها" (١١) .

---

١) الشامل في اصول الدين تحقيق علي سامي النشار ، (دار المعارف بالاسكندرية ١٩٦٩) ، الارشاد ترجمه واعتنى بطبعه ج . د . لوسياني (باريس ١٩٣٨) .
٢) الاقتصاد في الاعتقاد تقديم د . عادل عوا ، (دار الامانة — ١٩٦٩) .
٣) الفصل في الملل والاهواء والنحل لابن حزم الظاهري . مكتبة خياط — بيروت .
٤) الفصل ٥ : ٦٦ .
٥) الفصل ٥ : ٦٩ .
٦) الفصل ٥ : ٧٤ .
٧) الفصل ٥ : ٧٤ .
٨) الفصل ٥ : ١٤ .
٩) الفصل ٥ : ١٤ .
١٠) الفصل ٥ : ١٥ .
١١) الفصل ٥ : ١٥ .

.../..

ب- وكذلك فعل ابن رشد في كتابه " مناهج الادلة "(١). فانتقد موقف الاشعرية عامة من نظرية الجزء الذى لا يتجزأ، او نظرية الجوهر الفرد معتبرا ان : " طريقتهم المشهورة انبنت على بيان ان العالم حادث وانبنى عندهم حدوث العالم على القول بتركيب الاجسام من اجزاء لا تتجزأ، وان الجزء الذى لا يتجزأ محدث، والاجسام محدثة بحدوثه، وطريقتهم التي سلكوا في بيان حدوث الجزء الذى لا يتجزأ، وهو الذى يسمونه الجوهر الفرد طريقة معتاصة "(٢).

ولقد اثنى ابن رشد على الاشعرية باتباعهم العقل " في التصديق بوجود الله تبارك وتعالى "(٣). الا انه انتقد نظريتهم في الجوهر الفرد، لانها نظرية معتاصة تفضي الى الجدل كما يعتقد. لكننا لا نعدم حديثا - في عصرنا - من يشير الى ان نظرية الاشعرية التي بلورها الباقلاني - ولربما اوجدها نظرية تفضي الى الفلسفة فأرنست رينان مثلا في كتابه " ابن رشد وفلسفته الدينية "(٤). ولويس غرديه والآب جورج قنواتي في كتابهما " فلسفة الفكر الديني "(٥). اشاروا جميعا الى وجود فلسفة اسلامية في علم الكلام، وما رآه ابن رشد في نظرية الجوهر الفرد من صعوبة تؤدى الى الجدل، يجده هؤلاء الباحثون مهما للفكر الفلسفي الاسلامي يقول رينان " وقد لاح لهم - ويعني المتكلمين - نظام الذرات وان الله قادر على ابادتها وانه يخلق ذرات جديدة بلا انقطاع وانه يؤثر في كل شيء "(٦). ويعني بهذا " ان الله يخلق الموت كما يخلق الحياة ويخلق الحركة. وليست النفس ذاتها غير حادث يديمه الله بلا انقطاع "(٧).

---

١) فليسفة ابن رشد تحقيق مصطفى عبد الجواد عمران. مكتبة المحمودية التجارية بمصر (الطبعة الثالثة ١٩٦٨).
٢) فلسفة ابن رشد : ٤٢.
٣) فلسفة ابن رشد : ٤٣.
٤) ترجم الكتاب عادل زعيتر دار احياء الكتب العربية (القاهرة ١٩٥٧).
٥) نقل هذا الكتاب الى العربية الشيخ د. صبحي الصالح والآب د. فريد جبر دار العلم للملايين بيروت (الطبعة الاولى ١٩٦٧).
٦) ابن رشد وفلسفته الدينية لارنست رينان : ١٢٠.
٧) ابن رشد وفلسفته الدينية : ١٢٠.

.../..

فالباقلاني اشار في كلامه الى القدرة الالهية التي تتدخل في كل شيء ، واشار الى ان القوانين الطبيعية ليست سوى حادثة من الله تعالى ، فالسببية عنده لا تعتمد على الطبيعة وقوانينها وانما على الله وحده الذى يسن السنن ويأتي بالقوانين لها (١) .
وان اورد ارنست رينان رأيه في المتكلمين ، لا نجد له تحديدا لشخصية متكلمة في هذا الموضوع ، وان كنا ندرك حين نطلع على آثر الباقلاني انه واحد من هؤلاء الذين يشير اليهم " رينان " وبما ان - الباقلاني - يمثل الطبقة الثانية من الاشعرية (٢) . فقد يكون سباقا الى اعلان هذا المذهب الذى يراه رينان " انه احسن ما يعارضون به - ويعني المتكلمين - مشائية الفلاسفة " (٣) .

واما مؤلفا " فلسفة الفكر الديني " فيجدان ايضا ان الفلسفة الاسلامية موجودة في علم الكلام يقولان " واذا بحثنا عن فلسفة اسلامية وجب علينا ان نطلبها هنا " اى " في علم الكلام " (٤) . وقد اشار الى قضيتين شهيرتين ينفرد بهما علم الكلام : الاولى في مذهب الاشاعرة في الجزء الذى لا يتجزأ ، والثانية في نظرية الاحوال وقد ردا ضبط الاولى الى الباقلاني حيث انه اظهرها بصيغتها الانتهازية ثم اعادا القضيتين الى تفكير معتزلي اولا . وهما يقولان في مكان آخر في مذهب الباقلاني " هذا وانا نعلم ان الباقلاني واتباعه جعلوا قواعد مذهبهم الذرى تبعا للقرآن في وجوب اعتقادها ، وهو في نهاية الامر قول يجعل في ضوء واحد عقيدة التنزيه بمعناها المطلق ، والصيغة التي اخرج عليها هذه العقيدة تصور العالم من خلال مذهب الجزء الذى لا يتجزأ " (٥) .

ثم ان علي سامي النشار في " مناهج البحث عند مفكرى الاسلام " حاول ان يظهر الباقلاني فيلسوفا ايضا في اختراعه " لنظرية العادة وجريانها " فكل شيء يحدث في مستقر العادة بالضرورة والمشاهدة " (٦) . الا ان هذه العادة قد تخرق بقدرة الله تعالى

---

١) التمهيد (طبعة ١٩٥٧) : ٥٣ - ٥٩ .
٢) اشرنا الى طبقة الباقلاني الثانية من الاشعرية في فصل الكلام في مذهب الباقلاني .
٣) ابن رشد وفلسفته الدينية : ١٢٠ .
٤) فلسفة الفكر الديني ٣ : ٥٦ .
٥) فلسفة الفكر الديني ٣ : ٥٨ .
٦) مناهج البحث عند مفكرى الاسلام : ١٦١ .

ح ٠ / ٠٠٠

٩

التي تتدخل باستمرار فالطبيعة عند الباقلاني مطردة وكذلك قوانينها الا انها ليست قوانين مطلقة لوجود القدرة الالهية (١).

فالباقلاني خصم عنيد لمن رأى في شريعة الاسلام رأيا مختلفا عن رأيه وهو الامام الذي اتخذ من الحجج والبراهين ادلة للوصول الى المعرفة واتخذ من القرآن والسنة مرشدا وهاديا للفكر والجسد معا مما دعا القاضي عياض ان يعقب في كتابه ترتيب المدارك على سيرة الباقلاني مادحا " وكان بعضهم يقول : جاء في الاثر ان الله كان يتعاهد في رأس كل مائة رباني من علمائها يحيي لها دينها ، ويجدد شريعتها ، فكان امام رأس اربعمائة ابو بكر بن الطيب رحمه الله " (٢).

---

١) مناهج البحث عند مفكري الاسلام : ١٦١ .
٢) ترتيب المدارك ٤ : ٥٨٧ .

٠٠/٠٠٠

المصـــادر والمراجـــــــع

المصادر : كتب الباقلاني اولا :

اعجاز القرآن للباقلاني . تحقيق احمد صقر ، دار المعارف ١٩٦٣ .

الانصاف فيما يجب اعتقاده وما يجوز الجهل به للباقلاني . تحقيق محمد زاهد الكوثرى ، الطبعة الثانية مؤسسة الخانجي القاهرة ١٩٦٣ .

البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانات والسحر والنارنجات للباقلاني . تحقيق الآب ريتشرد يوسف مكارتي اليسوعي . المكتبة الشرقية بيروت ١٩٥٨ .

التمهيد للباقلاني . تحقيق محمود محمد الخضيرى ومحمد عبد الهادى ابو ريدة دار الفكر العربي القاهرة ١٣٦٦ / ١٩٤٧ .

التمهيد للباقلاني . تحقيق الآب ريتشرد يوسف مكارتي اليسوعي . المكتبة الشرقية بيروت ١٩٥٧ .

سؤالات الرى . كتاب صدر مع مجموعة كتب لمؤلفين آخرين جامعة دمشق ١٩٦٦ : كتاب في التصريف للامام عبد القاهر الجرجاني ، كتاب فيه الممدود والمقصور لابي اسحاق الزجاجي ، فصل فيه مختصر في ذكر الالقاب لابي قاسم ابن الانباري .

نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلاني . تحقيق محمد زغلول سلام . دار المعارف بالاسكندرية ١٩٧١ .

../...

الكتب الاخرى ثانيـــــا :

ابن رشد وفلسفته الدينية لمحمود قاسم . الطبعة الثالثة ، مكتبـــــة الانجلو المصرية ١٩٦٩ .

اخلاق الوزيرين لابي حيان التوحيدى . تحقيق محمد بن تاويت الطبخـي دمشق ١٩٦٤ .

الارشاد لامام الحرمين للجويني . ترجمة واعتنى بطبعه ج ، د ، لوسيانـــي مكتبة ارنيست لورو باريس ١٩٣٨ .

الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي . تقديم عادل العوا . الطبعة الاولـــى دار الامانة بيروت ١٣٨٨ / ١٩٦٩ .

الامتاع والموانسة لابي حيان التوحيدى . تحقيق احمد امين واحمد الزين منشورات المكتبة العصرية بيروت ١٩٥٣ .

البداية والنهاية للحافظ ابن كثير . الطبعة الاولى مكتبة المعارف بيـروت ١٩٦٦ .

تاريخ ابن خلدون منشورات دار الكتاب اللبناني ١٩٥٦ .
تاريخ بغداد ، للحافظ ابي بكر الخطيب البغدادى دار الكتاب العربـــي بيـــــــروت .

تاريخ الرسل والملوك للطبرى . تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم دار المعارف بمصر ١٩٦٢ .

تاريخ قضاة الاندلس لابي الحسن النباهي . تحقيق اليفي بروفنســـــال الطبعة الاولى . دار الكاتب المصرى ١٩٤٨ .

../...

التبصير في الدين لابي مظفر الاسفرائيني . تحقيق محمد زاهد الكوثري مكتبة الخانجي القاهرة ١٣٧٤ / ١٩٥٥ .

تبيين كذب المفترى لابن عساكر . نشره القدسي دمشق ١٩٢٧ .
ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة اعلام مذهب الامام مالك ، للقاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي . مكتبة الحياة بيروت .

تهذيب اللباب وتقريب الانساب لابن الاثير . تحقيق احسان عباس مكتبة المثنى بغداد .

ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر .

الديباج المذهب لابن فرحون . الطبعة الاولى مطبعة المعاهد القاهرة ١٣٥١ .

الشامل في اصول الدين لامام الحرمين الجويني . تحقيق علي سامي النشار وفيصل بديرعون ، وسهير محمد مختار ، دار المعارف الاسكندرية ١٩٦٩ .

شذرات الذهب في اخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي . مكتبة المقدسي ١٣٥٠ - ١٣٥١ .

طبقات الحنابلة للقاضي ابي الحسين بن ابي يعلي . تحقيق محمد حامد الفقي ١٣٧١ / ١٩٦١ .

طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي . تحقيق محمود الطناحي ، وعبد الفتاح محمد الحلو ، الطبعة الاولى ١٣٨٥ / ١٩٦٦ .

../...

طبقات الصوفية لابي عبد الرحمن بن موسى السلمي . تحقيق جوهان بيدرسن المكتبة الشرقية ، باريس ١٩٦٠ .

الطبقات الكبرى لابن سعد ، دار صادر - بيروت ١٣٨٠ / ١٩٦٠ .

طبقات المعتزلة لاحمد بن المرتضى . تحقيق سوسنة ديفلد فلزر بيروت ١٣٨٠ / ١٩٦١ .

العبر في خبر من عبر . للحافظ الذهبي تحقيق صلاح الدين المنجد . الكويت ١٩٦٠ .

الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادى . تحقيق محي الدين عبد الحميد مطبعة المدني القاهرة .

فرق وطبقات المعتزلة . تحقيق علي سامي النشار وعصام الدين محمد علي دار المطبوعات الجامعية ١٩٧٢ .

الفصل في الملل والاهواء والنحل لابن حزم ، بهامشه الملل والنحل للشهرستاني . مكتبة خياط - بيروت .

الفهرست لابن النديم . المطبعة الرحمانية بمصر .

الكامل في التاريخ لعزالدين ابن الاثير . دار صادر بيروت ١٣٨٥/١٩٦٥ .

لسان الميزان لشهاب الدين بن حجر العسقلاني مؤسسة الاعلمي للمطبوعات بيروت الطبعة الثانية ١٣٩١ / ١٩٧١ .

المعارف لابن قتيبة . تحقيق ثروت عكاشة الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر .

../...

مقدمة ابن خلدون لعبد الرحمن محمد بن خلدون . تحقيق علي عبد الواحد وافي الطبعة الاولى ١٣٨٩ / ١٩٦٠ .

المنتظم في تاريخ الملوك والامم لابي فرج بن الجوزي . دائرة المعارف العثمان بحيدرا باد الدكن ، الطبعة الاولى ١٣٥٨ .

وفيات الاعيان وانباء انباء الزمان لابن خلكان . تحقيق احسان عباس دار الثقافة بيروت ١٩٦٨ .

الولاة وكتاب القضاة لابي عمر محمد بن يوسف الكندى المصرى ، تصحيح رفن كست مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٨ .

٠٠/٠٠٠

المراجع الحديثة :

ابن رشد لارنست رنيان . ترجمة عادل زعيتر ، دار احياء الكتب العربية مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٩ . لاهابر محاسن

ابو حيان التوحيدي وعلم الكلام / في مجلة الابحاث الجامعة الاميركية في بيروت العدد ١٩ (١٩٦٦) .

الاعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الازرق ، لعائشة عبد الرحمن بنت الشاطىء دار المعارف بمصر ١٩٧١ .

تاريخ الادب العربي لكارل بروكلمان . تحقيق يعقوب بكر ورمضان عبد التواب دار المعارف بمصر ١٩٧٥ .

تطور دراسات اعجاز القرآن لعمر الملا حويش . منشورات جامعة بغداد ١٣٩٢ / ١٩٧٢ .

الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم ميتز . ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة الطبعة الرابعة ، دار الكتاب العربي بيروت ١٣٨٧ / ١٩٦٧ .

دائرة المعارف الاسلامية المترجمة الى العربية والصادرة ١٣٥٢ / ١٩٣٣ .

دراسات عربية واسلامية لوداد القاضي . طبع الجامعة الاميركية بيروت ١٩٨٠ .

فلسفة الفكر الديني ج قنواتي ولويس غرديه . ترجمة الشيخ صبحي الصالح والآب فريد جبر . الطبعة الاولى ، دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٧ .

مذاهب الاسلاميين لعبد الرحمن بدوي الطبعة الاولى ، دار العلم للملايين بيروت ١٩٧١ .

...٠٠/٠٠٠

مشكلة الصفات الالهية في مذهب الاشعرى واتباعه الاول العظام ، للآب ميشال الآرد ، مخطوط مترجم بمكتبة جامعة القديس يوسف بيروت .

المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي . مطابع الشعب ١٩٧١ . القاهرة ١٩٧١ .

مناهج البحث عند مفكرى الاسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الاسلامي لعلي سامي النشار ، الطبعة الثانية دار المعارف ١٩٦٧ .

الموسوعة الاسلامية طبعة ١٩٦٠ الفرنسية .

نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام لعلي سامي النشار الطبعة السابعة دار المعارف ١٩٧٧ .

======